دعنا نشكرك يامظفر

هل أوفيناك القليل من حقك علينا يامظفر النواب؟
هذا مايشغلنا حقاً ونحن ننجز القليل مما في أرواحنا من بعض وفاء يليق بك أيها الشاعر، المناضل، الفنان.
نحن الذين تلقفت ذائقتنا مبكراً قصائدك، أغنياتك، صرخات احتجاجك.
نحن الذين ولدنا على هذه الأرض التي لا نفرح من القلب ولا نبكي من القلب إلا فيها .
نحن الذين كتب لنا الحظ أن نولد على هذه الأرض التي أنجبتك، فكنا على موعد مع بهجة الحظ ، التي فجعتنا برحيلك الجسدي عنها وعنا، بعد أن عشت طويلاً معنا ، تقيم في ضمائرنا، وتشد من أزرنا في سنوات جحيم الطغاة، فقد كانت قصائدك تدفع بنا إلى حيث المجابهة الباسلة، التي خلدتها قصائدك.
نشكرك يامظفر، لأنك عقدت لنا محبة مع أبطالك (صويحب، سعود، لعيبي، حرز، حجام و....الخ).
كم أغدقت علينا بكل ذلك الجمال، وها نحن نجتمع اليوم في حضرتك لنغني بصوت الجوقة الواحدة:
مرينه بيكم حمد

الشبكة
السنـة الثامنة عشرة
15 أيار 2023

magazine.imn.iq

الشبكة

مجلة الشبكة العراقية

مجلة أسبوعيـــة عامة
نصف شهـرية مـؤقتا
تصدر عن شبكة الإعلام العراقي

السنـة الثامنة عشرة
15 أيار 2023

427

رقم الايداع في دار الكتب
والوثائق ببغداد 895 لسنة 2006

A L S H A B A K A A L I R A Q Y A

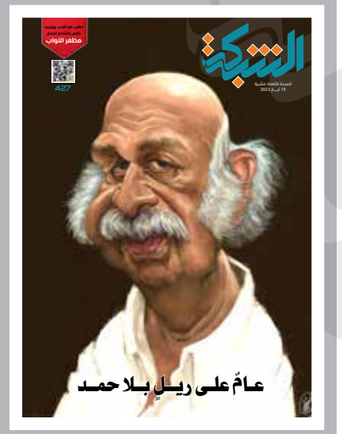

الغلاف لوحة للفنان
علي الصميخ

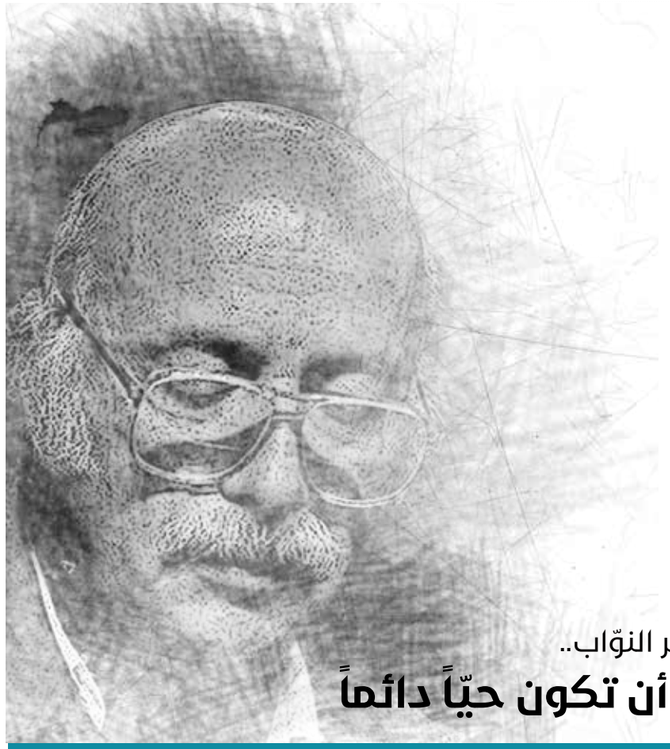

04
مظفر النوّاب..
فن أن تكون حيّاً دائماً

رئيس شبكة الإعلام العراقي
د. نبيل جاسم

رئيس التحرير
سرمد عبد الحسين

سكرتير التحرير
طارق حليم الاعرجي

المدير الفني
ياســـر جمال العتابي

التصحيح اللغوي
كاظم ابراهيم

للمساهمة عبر الانترنيت
editor@magazine.imn.iq
الاعلان
Adver@magazine.imn.iq

هواتف المجلة
التحر ير : 07828070778
الاعلانات: 07828070750
التـوز يع: 07809210536

06

عندما رتق النواب فتق
ابن مسعود

مظفر النواب..
الروح العراقية العذبة

14

08

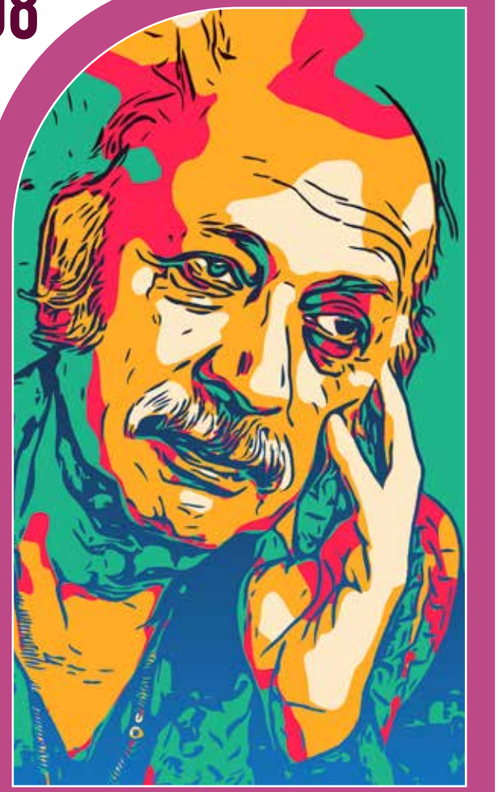

الخالق بقوة الموهبة

16

بروموثيوسية مظفر النواب الشعرية والشاعرية

مظفر النوّاب..

فن أن تكون حيّاً دائماً

ثمّة شيءٌ غريبٌ متعلّق بالشاعر الكبير مظفّر النواب (1934 - 2022) وربّما أحدثت ظروفُ ما بعد وفاته، وحتى غيبوبته الطويلة، تأمّلاً مكثّفاً بتجربته، وهذا ما يحدثُ عادة حين يغيب المبدع فيزيائياً وجسدياً، ولا يبقى منه سوى ما أنجز، ليتم تلقيه بهدوء، وتفكيك، ومحاولة فهم، بعيداً عن الميل العاطفي والتأثير الذي يحدثه وجود الشخص على قيد الحياة.

د. نبيل جاسم

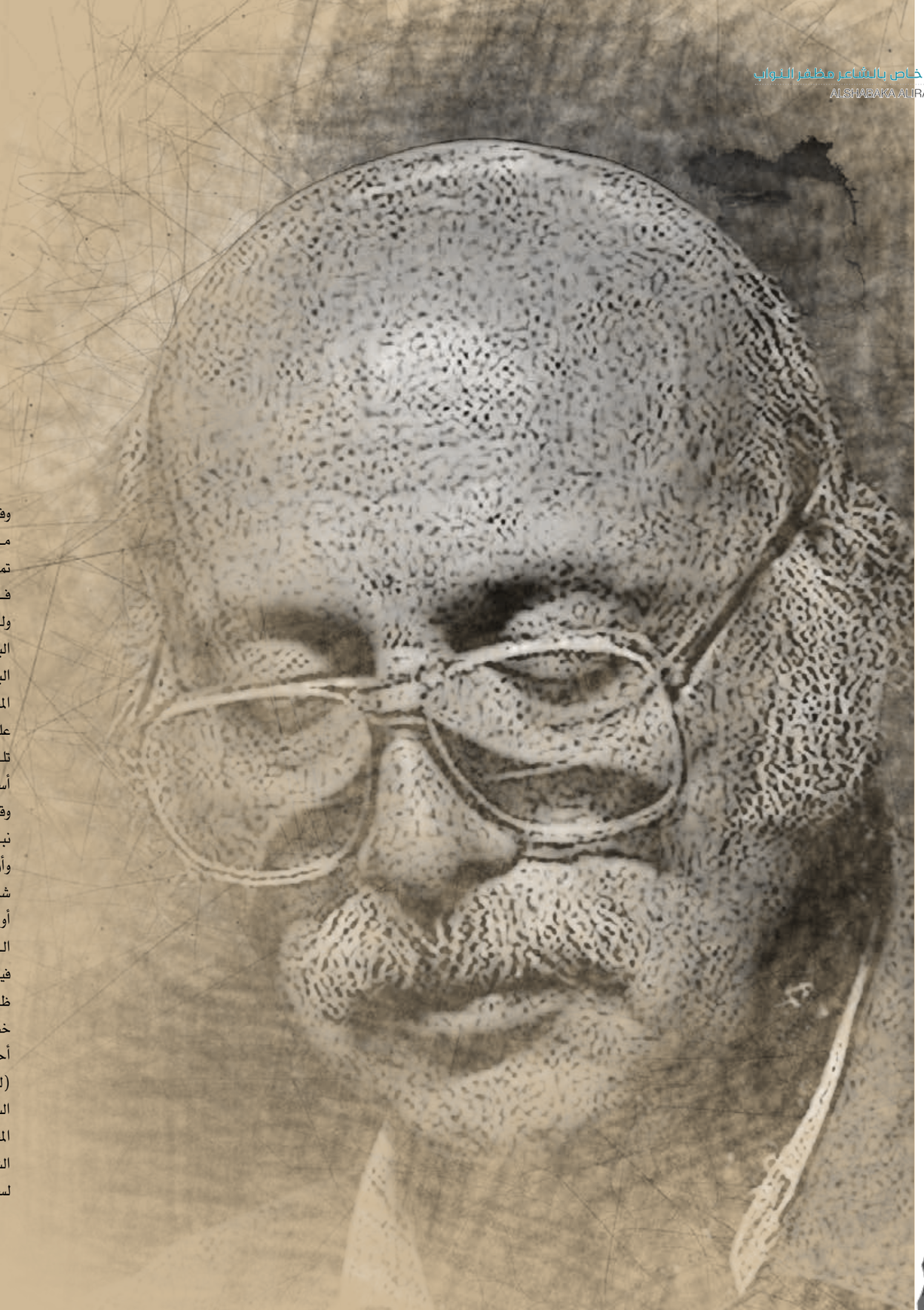

وفي الواقع، هو ليس شيئاً غريباً واحداً، وإنما عددٌ كبيرٌ من اختلالات النسق الذي نعرفه في الشعر العراقي، تمرّداً واختلافاً، حتى ليبدو النوّاب، لوحده، حجراً غريباً في هذا الجدار اللامع الذي اسمه "الشعر العراقي".

ولد مظفّر النوّاب في الكاظمية، لعائلة برجوازية، كان البيانو الكبير يحتلّ جزءاً من منزلها، والنعومة تظلّل البيت، لكن خيط العدالة سحبه من القاموس البغدادي المغناج ليكون على صلة بالطين، والفقراء، والمقتولين ظلماً، على يد الإقطاع، ثم على يد قمع الأنظمة السياسيّة، ولعلّ تلك أغرب صفة بمظفر النوّاب، أن يستبدل شاعر ما أسلوبه وقاموسه بشكل تام، بعيداً عن اللهجة الأم، في وقتٍ يتمسّك كلّ شعراء العامية بانتمائهم اللهجيّ، فمن نبرة واحدة ستعرفُ أنّ عبد الرحمن الأبنودي صعيدي، وأنّ صلاح جاهين من أسرة مدنيّة من القاهرة، ومن شطر زهيري واحد ستعرف أن فلاناً من الفرات الأوسط، أو من أعالي الشرقاط، لكنّ النوّاب هو الشاعر الوحيد الذي تتخيّل نصّه من الجنوب، من أقاصيه، وهو لم يعش فيه إلاّ فترات قليلة!

ظلّ النوّاب مثل نهر هادئ، يسيل في كلّ شيء، ويترك خضرةً واضحة لكل ذي عينين، لكن الانقلابة الكبرى التي أحدثها في جسد القصيدة العامية، بعد نشر قصيدته (للريل وحمد)، كانت تماماً تشبه لحظة بدر شاكر السياب، التي اجترح فيها وجوداً آخر للشعر العربيّ المعاصر، فكانت تلك القصيدة تحوّلاً أولاً على المستوى الشكلي- العَروضي، ثمّ البنائيّ، والخِطابي، إذ كان عن لسان امرأة (ولكم أن تتخيّلوا خطورة المغامرة في تلك السنوات أن يستعير شاعر لسان امرأة بكل عواطفها)، وليس انتهاءً بأنها نصّ شعريّ عاميّ يخضع للتأويل، مثله مثل أيّ نصّ فصيح آخر!

ثم توالت المحطّات التي لا تشبه إلا مظفر النوّاب وحده، صاحب القصيدة التي منعت كثيرين من كتابة "البراءة" من انتمائهم السياسي، الهارب من السجن بعملية أسطورية، الذي يتداولون صوته مثل منشور خطر، ثم الغيمة التي غيّرت لونها من المحليّة إلى العالمية، لتمطر على كلّ الناطقين بالعربيّة شِعراً فصيحاً، كان يلهب الناس "من المحيط إلى الخليج" كما يقولون، غضباً وحزناً، غناءً وهجاءً، تغزّلاً وشتيمةً، بناءً فنّياً وسرداً شِعرياً-سينمائياً، ليكون أشبه بمكعّب ملوّن، بآلاف الأوجه.

شكّل النوّاب ظاهرة غريبة دوماً، لا تشبه النسق المُتّبع، فلا قصائده تشبه قصائد مجايليه، ولا حتى الأغاني التي يكتبها، أو بمعنى أدق: القصائد التي تُلحَّن، تُشبه أغاني الآخرين، بل حتى رسوماته، وهو ذو أثر في التشكيل العراقي إلى حدٍ ما، كانت لا تشبه إلاّ عوالمه، وتقنياته، وعالمه البريء الطفل من جهة، والقاسي من جهة ثانية.

عاش النوّاب عدّة حيوات، ثمّ انتشر وأفاض على عدّة فنون، ومساحات تأريخية منها وجغرافيّة، وأثّر فيها جميعاً، ليعلّمنا جسده المُنهك الذي انتصر عليه الموت أنّه لم ينتصر تماماً، وأن المبدع إن أخلص للناس ولفنّه ووجوده الإبداعي سيكونُ حيّاً على الدوام، ظاهرة لا تشبه إلا نفسها، وتغري الآخرين بتقليدها، لكنها مثل العدد صفر في المعادلات الرياضية: فريدٌ، لا يتكرر، ولا يشبه سوى نفسه أبداً.

عندما رتقَ النواب فتقَ ابن مسعود

في بيئة منزلية ازدانت زواياها بلوحات مرسومة على جدرانها، لم تخلُ بالطبع من صورة لأمير الفقراء، لوحات ألهمت مخيلته الإبداعية الفنية التشكيلية بخط موازٍ لإبداعه الشعري، وبآلة بيانو توسطت صالة الدار رفقة عود لوالده وضع على (صندوق طنينه)، شنّفت شدواهما أسماعه، في ذات الوقت الذي تشبعت أذنه بمرثيات كربلائية ألقت بظلالها على بيئته (الكظماوية).

سرمد عباس الحسيني

تلك المرثيات المستمدة من (ثغيب آلام كلكامش) على (أخيه) البطل (أنكيدو)، في حزن كربلائي سومري سرمدي منذ سبعة آلاف عام، في تناصٍّ تاريخي عجيب لذات مفردات الحزن وأبطاله، تلاها بآلاف السنين في طفٍّ كربلاء.

هذه المراثي التي تميزت بها مدينته بحكم تاريخها وقدسيتها الدينية المعروفة، ألقت بظلالها على تلك المراثي وحكاياتها عن الظلم التأريخي لكل ما حمله (مظفر النواب) في ذاكرته من رموز وشخصيات ومعطيات أسهمت في تشبع وعيه، وحتى لاوعيه، بمعاني مناوءة الظلم، والسعي نحو تحقيق العدالة الاجتماعية ما استطاع إليها سبيلا.

لذا فقد كان من المنطقي أن يستلهم النواب رموزه المناوئة للسلطة القمعية، أو رموزه المعترضة على النظام الاجتماعي الطبقي بشقيه الأرستقراطي والإقطاعي من المتمردين على هذه النظم بنماذج تنتمي إليه فكرياً، أو حتى مكانياً.

فكان النهج الذي تبناه (أبو ذر الغفاري) نموذجاً ملهماً لأفكاره، وليحمل بكل ما يعي هذا الاعتقاد من معنى على كتفيه كعبء صخرة أطلس، ومغادراً باعتقاده المؤمن به، نحو سعيه في البحث عن الحقيقة بمعناها الجوهري، أو حتى المثالي، سائراً نحو خطى (كلكامش) في بحثه عن خلوده.

الخلود.. الذي يتبلور في مخيلة الباحثين عنه، يختلف من باحث إلى آخر، اشتركوا في الهدف النبيل له، واختلفوا في سبل السعي إليه، فالبعض سعى إليه عبر موقف أفلاطوني حفظه التاريخ، والبعض الآخر عبر كلمة حق عند سلطان جائر، والآخر عبر قتال مسلح.. وغيرهم كثير.

وإذا ما كانت فكرة الخلود الأولية عند (كلكامش) ارتكزت في سعيها نحو (نبتة) تطيل عمر الإنسان وتخلده إلى يوم يبعثون، قبل أن تسرقها منه (الأفعى)، ليعي بعد أن ابتسم له القدر الغيبي بخسارته (النبتة)، ووصوله إلى نهاية رحلته وموت رفيقه، أن حقيقة الخلود تكمن في فعل الخير ونصرة المستضعفين، وتحقيق العدالة الاجتماعية، ولتنتهي بعد ذلك تراجيديا (كلكامش) بموته (هانئاً) مطمئناً خلف أسوار مدينته (أوروك)، تاركاً إرثاً من المثالية الإنسانية كانت مصدر إلهام لجمهورية أفلاطون المفترضة.

فتراجيديا (كلكامش) تختلف عن تراجيديا النواب، التي كانت تختلف في مساعي بحثها عن الخلود، لا في أساس سعيها.

فخلود النواب تمثل بتجربته الشعرية الممتدة على مساحة كبيرة من تبنيه الهمّ الإنساني عموماً، ولهمّه الذي حمل فيه دمه على راحة يده، وهو الأمر الذي منح النواب فسحه لا يستهان بها في تجسيد التجارب الإنسانية، وتوظيف رموزها في صراعها الأبدي بين طرفي الخير والشر في معظم طروحاته الإبداعية، وأن يستحضر بلا وعي منه ما غاب عنه الوعي، رمز العدالة الإنسانية و(رائد الاشتراكية الأول)، إمام المتقين وناصر الفقراء والمستضعفين (أبـــــا الحسن) أمير المؤمنين في وعيه اليقظ، مرفقاً معها بدراية قناعة (بقجة) زاده وزوّاده الفكري والجسدي، هارباً بمثالية أفكاره من قمع ا لسلطة

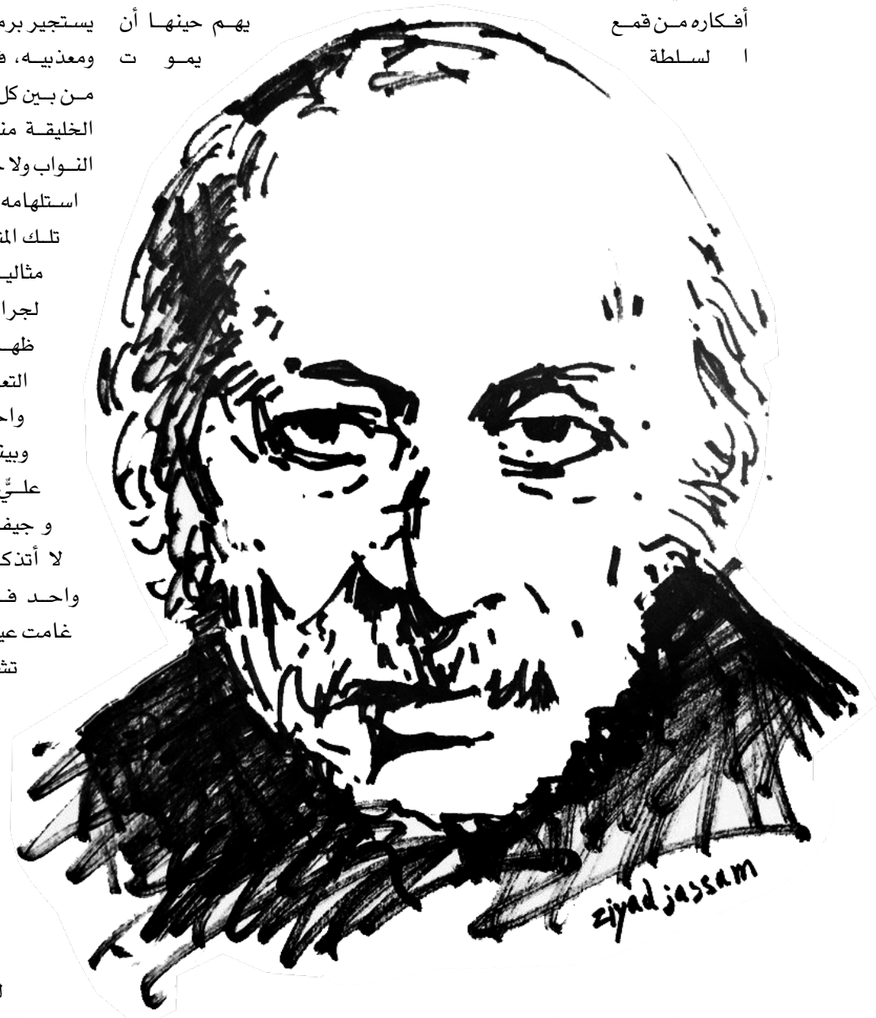

وزبانيتها ، ومن مساحة التباين الطبقي إلى مساحات الثـــوار التي لا تحدها جدران وزنازين، ذلّها فيما بعد بـ (خاشوكة) نحو فضاء الحرية وصوتها الصادح، وليتمثل له (أبو ذر الغفاري) نموذجاً فريداً لمن يخط تاريخه بشرف الاعتقاد بالقضية، ولا يهم حينها أن يموت بعدها منفياً وحيداً طريداً في صحراء (الرّبذة)، وكيف لا يرعبهم (الغفاري) إذا كان ملهمه إمام الإنسانية وعلم المتقين (عليّ) ؟! ذات (عليّ) ألهمت النواب فاستحضرها في وجدان قصائده، مخاطباً إياه بـ (ملك الثوار) الذي يستجير برمزيته في مواجهة سجانيه ومعذبيه، فقد استل النواب علياً من بين كل التأريخ الذي حفلت به الخليقة منذ نشوئها، وما خطئ النواب ولا خطئ في صميم ومعنى استلهامه، فمن يملك مثل (علي) تلك المثالية المفرطة....لا أحد!

مثالية جسّدها النواب بلسماً لجراحات سياط معذبيه على ظهره النحيل المكبل بكرسي التعذيب عندما قال:

واحتشد الفلاحون عليّ
وبينهم كان
عليٌّ وأبو ذر ولوممبا
و جيفا ر ا
لا أتذكر، فالثوار لهم وجه
واحد في روحي
غامت عيناي من التعذيب
تشقق لحمي من السياط
فحط عليٌّ رأسي في
حجره
وقال تحمل..
فتحملت .
وتحمل النواب،
كما تحمل (ابن
مسعود) فتقه رتقاً
بسورة الواقعة.

لذا..ليس من المستغرب بعد ذاك.. أن يكون عمره وعمر تحمله أطول من عمر سجّانيه وسياطهم بخمسين ألف سنة مما يعّد الطغاة.

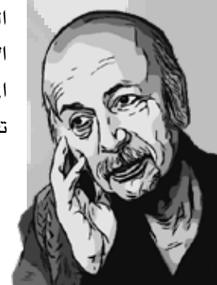

الخالق بقوة الموهبة

لم تكن إطلالة مظفر النواب على شعر العامية إلا ما يشبه ذلك البرق الذي أربك سماء فيها من رتابة الوجود الكثير، لم يكن هناك سوى شعر (شعبي) بسيط ممثل بأشكاله التقليدية الرتيبة، بين ماهو هتاف حماسي - أهازيج ثورة العشرين - وقصائد ذات مسحة دينية مباشرة، لم يكن هناك ما يشير إلى موهبة تستحق التأمل باستثناء بضعة موالات للحاج زاير .

كاظم غيلان

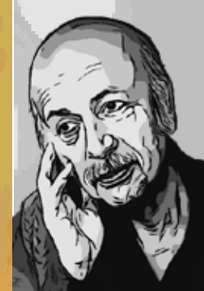

مظفر النواب مع كاظم غيلان

كتب مظفر النواب قصيدته (للريل وحمد) بين أعوام ١٩٥٦-١٩٥٩ خالقاً قصيدة بالعامية العراقية، جديدة، غير مألوفة، صادمة مدهشة بكل مايعنيه الخلق:

أرد اشري جنجل..
والبس الليل خزامة
جن كذلته والشمس والهوا هلهولة...

وراح بعدها يتسع بفتح ذلك الأفق اللامنتهي ليؤسس خطاباً شعرياً، ولا أقول (يجدد) ، فمن قبل ما كتب لم يكن ثمة شعر نطلع عليه عبر إصدارات كما هو حال شعر الفصحى الذي كانت له فعالياته وإصداراته قبيل حركة التجديد التي حققها السياب، و بلند، و نازك الملائكة.

توالت قصائد مظفر وهي تنسج الرؤى الجمالية وتنهض بموضوعات تتصل بتجربتيه الذاتية والعامة، تلك التي نجدها في قصائد انتفاضات الفلاحين، حيث المرأة تطل بجمال بعيد عن النواح والصراخ كما في (غيلان ازيرج):

احط الحجل للثوار ..
كمره ازغيره ع المعبر
وأشيّم أترف النجمات ..
فوك اشراعكم تسهر..
من أين جاء مظفر المدني، ابن العائلة البغدادية

قصاصات نوابية إلى كاظم غيلان

بكل ذلك الثراء الجمالي الذي أخفته طويلاً لهجة جنوب العراق، وأهواره تحديداً، لولم يكن لعبقرية مظفر فعلها:

يازين الذي ابطرواك
دلتنه الجبيرة اتكوم للخطار
مهرة، ومن بنات اكحيل
مهرتك حنه حنتهه
مري احديثات كصتهه

كان لهذه العبقرية دور في عملية الخلق تلك، التي استمرت لترافق تصاعد شهقات روحه المترعة بالعنفوان، والشبق، والهمس، والقتال ايضا:

هورة وكل كصبهه يخرخش بموتك ..
وروحي اويه الجبايش جنهه تتكلكل ..

أجزم أن أبناء الأهوار والشعراء، المولودين فيها، والقادمين منها، لم يرتفعوا باشعارهم -فنياً- بالمستوى الذي كتبه عنها المدني البغدادي مظفر النواب:

كمريه ..وزبونك طيف
فزز وحشة الغافين
كل دلّه ابسماهه اهلال
تشرك بالمضيف اسنين ..

اللامألوف كان قدر مظفر في إتيانه باستخدامات لم يألفها الشعر برمته:

ياسولة سكتّي
جانت ثيابي علي غربة

مظفر الشاعر، الفنان التشكيلي، المسرحي، الموسيقي الذي يذهلنا حين يغني، مجموعة مواهب تدفقت في خلق قصيدة جديدة، جمعت مكوناتها بوعي وتجربة نادرين رافقها موقفه المتفرد بكل ما فيه من نقاء وإصرار وصلابة نادرة.

يرى البعض أن قصيدة مظفر لا تنتمي إلا إلى آفاق ريف العراق، ولا أدري كيف لهذا البعض أن تناسى ملامح المدينة الواضحة في العديد من قصائده:

ديج ابو العرفين ومحجل حجل حبي علامة
حطت اطيور المحلة
وهو يكلب من غرامه

فالمحلة البغدادية التي شهدت طفولته تجدها إلى جانب (هور الغموكة) الذي شهد قتاله ضد السلطة. وهكذا يتسع أفق النواب ويلم بكل مافات من سبقوه، ولذا كانت تجربته (استثنائية) بحق.

حسن العاني

هاهو العقد الستيني يعلن عن ولادة مرحلة لامثيل لها في سجل العراق، وآية ذلك أن الحركة الثقافية في البلاد تزيح عن طريقها، لأول مرة، قبضة السياسة ولغتها وسلطانها، لتحل محلها لغة الأدب والفكر والفن، ولأول مرة يقود رواد المقاهي المثقفون نبض الشارع وحركة الحياة. في ذلك العقد (المبارك) كانت أعمارنا الشبابية تبدأ رحلتها المبكرة مأخوذة بأجواء الحوار الحماسية، ولم أكن -أنا- خارج هذه الأجواء، لكن المصادفة تشاء ضمّي إلى مجموعة أدبية تدافع بعنف عن (الشعر الحر)، إلى جانب تعصب للفصحى لامجال فيه للمهادنة، إلى الحد الذي كانت اللهجة العامية والكتابة بها تعدُّ رجساً من عمل الشيطان!

مظفر النواب.. وكذلك مظفر النواب

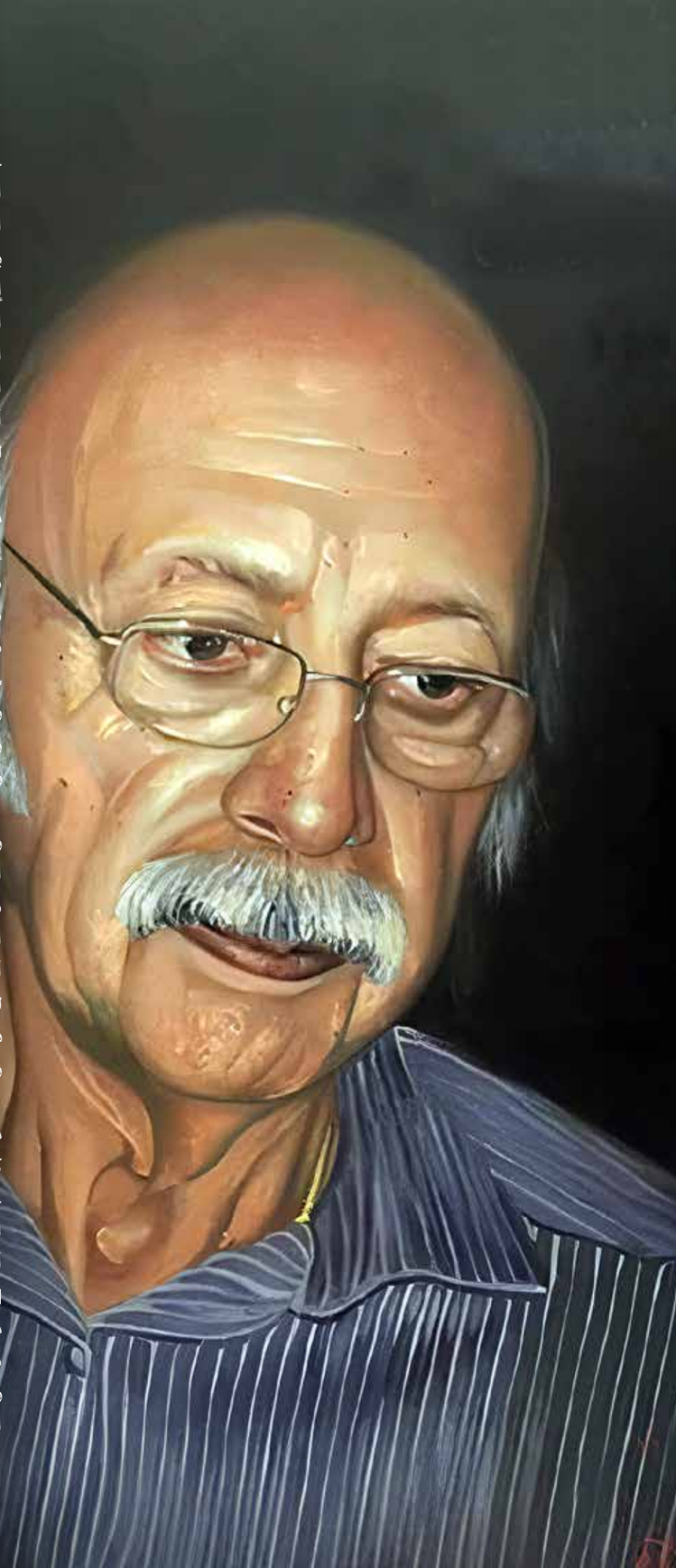

في وقت مبكر من ذلك العقد، كان اسم معين يتسلل إلى جلساتنا بشيء من الحذر، لكنه استطاع اختراق مجموعتنا، ولابد أنه كان يمتلك عصا موسى، وإلا كيف له أن يكون ضيف جلساتنا هذا (الغائب- الحاضر)، وهو يحاورنا بالشعر الشعبي ومفرداته العامية؟! على هذا النحو جرى التعرف على (مظفر النواب)، الذي أقنعنا بأن اللهجة الشعبية يمكن أن تكون توأم الفصحى. كان هذا الوافد قد ضمّ إلى مؤهلاته الشعرية سمعة دعتنا إلى التباهي بشاعرية (مواطن) شغل الشباب العراقي ومثقفيه بذلك الروح النضالي. إنه نزيل المعتقلات والسجون والمواقف البطولية، الذي ترك، حيثما نزل، حكاية هي من الجمال والسحر ما يجعلها ترقى إلى مستوى (ثورة) رومانسية التوهج في الضمائر والنفوس. هكذا هو التوافق في سيرة مظفر، وترافق (الشاعر والمناضل)، وكلاهما على قدر عال من الخصوصية النادرة. وإذا كان دور (البطل المناضل) موضع مباهاتنا واعتزازنا، فما الذي يجعل من شاعريته (الشعبية) -التي كنا نخشى حتى من النظر إليها- تحتل هذه المنزلة الرفيعة في نفوسنا؟!

زوادة عشقي فيها انحياز للنواب وقصائده، غير أن هذا الانحياز لم يولد من فراغ، فالقصيدة النوّابية تقوم على خصائص عدة، في مقدمتها ذلك الانسياق الغريب وراءها، والشعور العميق بالتعاطف معها قبل فهم مضمونها، وقبل اكتشاف ماتخبئ وراء سطورها، وفي مقدمتها أنها تجمع بين خصلتين: عناية كبيرة برسم الصورة الشعرية التي لاتقف عند بيت أو مقطع، بل تتواصل على امتداد القصيدة، وهي صور عامرة بالمؤهلات الفكرية والبلاغية والجمالية التي ترتبط في الوقت نفسه بالإشارات والرموز والدلالات المؤدية إلى ألق آخر يستنفر التأمل والقراءة النقدية المتأنية للوصول إلى ماهية الرموز وأسرارها.

وحيثما اقتنعت بوضع اليد على ما يريده مظفر، تفاجأ بأن غيرك من المسحورين بشعره قد توصل إلى معانٍ ودلالات وخبايا لا تتفق بالضرورة مع ما توصلت إليه، وبهذا ينتعش الجو الثقافي بتعدد الرؤى والاجتهادات، من دون أن أغفل عناية الشاعر في العديد من قصائده بالمزاوجة بين (الغزل والسياسة)، وهو ما يدفعنا إلى (التأويل) لمعرفة ما إذا كانت السياسة ترتدي أثواب الغزل، أو العكس، وفي المقدمة كذلك تلك (الفنطازية) المذهلة في طرح صور (فكرية) يصعب حل رموزها أحياناً، ففي قصيدة (البنفسج) لانعرف من هو المخاطب (الحبيب أم الرمز السياسي) عندما يصفه مظفر بـ (ميزان الذهب)، المعروف بعدله ودقته، وهكذا يمنحنا الطمأنينة إلى (روعة) الموصوف، لكنه سرعان ما يثلم هذا الوصف ثلمة مدمرة، حين يكون ميزان الذهب (غشاشاً). النواب يفاجئنا برأي، أو توصيف، يسقط إعجابنا بالميزان، وقبل الركون إلى هجر هذا الميزان، يعود الشاعر ليمارس معنا لعبة تدمير الأعصاب قبل تدمير القناعات، عندما (يدعي) بملء فمه أنه (يحب)، هذا الغشاش! ويصر

على البقاء وفياً له ولحبه على الرغم من ذلك النعت المؤذي. إنها بلا شك (حيرة) يمكن أن تقودنا الى الاقتناع بأن الشاعر يرسم نوعاً من الحب الفريد لا يود الإفصاح عنه، لكنه بصورة غير مباشرة يدعونا إلى اكتشافه!!

النواب لم يأخذ نصيبه من الاهتمام في ميدان الشعر الفصيح، مع أنه قدم قصائد تستحق الانحناء، لكن القصيدة الشعبية طغت على نتاجه، وجدير بالذكر هنا أن شعر النواب الشعبي كان فتحاً جديداً في ميدانه، لم يكن نمط قصائده امتداداً لسابقيه، إنه ولادة أسلوبية كسبت الذائقة الثقافية والشعبية، إذ أنه أسس مدرسة لا اسم لها غير مدرسة النواب، وقد قدر لها إنجاب مئات الأتباع والمتأثرين والسائرين على نهجها بهذا القدر أو ذاك. [كلنا خرجنا من معطف النواب]، بهذا المعنى اختصر الشاعر المبدع عريان السيد خلف، دور النواب وتأثيره على الشعر الشعبي. على أية حال، شهدت الستينيات، على المستوى الشخصي، إعجاباً وصل إلى حد التعلق بنتاج النواب الشعري والنضالي والإنساني، جعلني أتلقف كل شاردة وواردة من قصائده وسيرته.

و.. وكان ما كان.. أنا طالب جامعي/قسم اللغة العربية، والأستاذ المحاضر هو الدكتور (محسن غياض)، الذي يقيم الدنيا ولايقعدها لو تجرأ أحد منا وتحدث بالعامية في حصته، وفي ذلك الدرس، في ذلك اليوم الذي كنا قد ختمنا فيه المنهج الدراسي، طلب الرجل أن نقرأ ما نشاء، أو نسأل ما يخطر على بالنا، كنت لحظتها أسعد المخلوقات، فقد نشرت مجلة (ألف باء) في ذلك اليوم قصيدة للنواب بعنوان (جنح غنيدة)، وحين فطن غياض إلى (جريمتي)، لأنني أقرأ شعراً (عامياً) في محاضرته، جُنّ جنونه وشتمني -على ما أذكر- بالعامية، وطردني من القاعة. ولأن السعادة كانت تغمرني لم ألتفت الى غضبه، بل توجهت إلى جسر الأئمة المجاور لبناية الكلية، ومع نسمات دجلة الخير كنت أحاول تقليد صوت النواب حين يقرأ أشعاره..

[عمّه الشمس غابت، وانت ما رديت / عمّه الشمس ماتت وآني ما غابت / ردّيلي الفرح رديت / معضد باب ييجيني، وأحن حنة حمامة بيت / أتلمس ثلاثيني، وأزتهن شدة مفاتيح / ما رُهمن / ولا مفتاح / لا افتك العمر بيهنْ، ولا افتكيت].

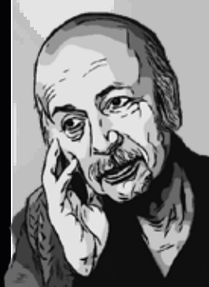

جمعة اللامي

كنا افترقنا منذ ست عشرة سنة. كان لقاؤنا عام 1968، وكنت قد استحصلت على حياة جديدة، وكان مظفر قد هرب من السجن عام 1967 بطريقة فريدة: لقد حفر السجناء السياسيون في سجن الحلة نفقاً تحت الأرض، استمر العمل فيه عدة أشهر، كان نفقاً عجيباً.

مظفر النواب: تقريظ الصداقة!

اقتادته سيارة إلى الفرات الأوسط، ومن قرية إلى قرية، ومن بلدة إلى بلدة، كان الأطياب يحفظون شاعرهم، وضميرهم، في مآقي العيون وسويداء القلوب. وكنتُ قد قمتُ بتعريف أحد المناضلين الشيوعيين على مظفر في سجن الحلة المركزي، قبل فترة على تنفيذ ذلك "الهروب الكبير".

.. وأخيراً التقينا

كان لقاؤنا الأول عام 1964 في سجن نقرة السلمان الصحراوي، وكان مظفر قد قدم من أحد سجون "السافاك" الإيراني إلى "النقرة"، ولم أقبله أول الأمر، كان يتكلم بأسلوب ونهج طلقتهما نهائياً: الخطاب الستاليني في الثقافة والحياة. ولكن ما إن فاتت عدة أيام، حتى تصادقنا. كان "معين النهر" الذي سيجري اغتياله بعد سنة 1968، مثل لوركا الإسباني، خطوته على خطوتي، ووحدته مثل وحدتي، وكنا نتشابه في أحلامنا، وقد هبط علينا مظفر، لتكتمل أرواحنا، ثم لم نلبث قليلاً حتى انعقدت بيننا، مع بعض الصحاب، أكثر من وشيجة: أي شرف تستحقه الكتابة؟ أي ضمير يصقل خصاله مع الشعر؟ وأية أخلاق فطريّة ينميها هاجس عالم جديد يكبر في خيالنا يومياً، تماماً كما تنمو قصيدة واحدة هي الشعر كله؟!

الآن أستريح على عالم ذاكرتي: أيها الماضي الجميل.. أيها الماضي "السلماني".. ما الذي جاء بك إلى دمشق؟ وأي قدر أسطوري جمع الغرباء والملتاعين في "مخيم فلسطين"؟ ولماذا "المخيمات" بدل صالات الاحتفال السلطوية؟ ولماذا الفقراء الذين لا هوية "رسمية" لهم، هم الأحباب والأصدقاء وخلّان آخر الزمان؟!

الغرفة تكاد تكون ضيقة، ربما لأن صوتنا هو العراق، وهل تكفي العراق غرفة؟ ربما لأن أصواتنا هي ذاتها أصوات أصدقاء من مصر والمغرب الكبير والخليج العربي، فهل تكفي هذا الوطن الكبير غرفة ضيقة في "مخيم فلسطين"؟!

الغرفة بدأت تضيق وتتسع، تضيق بهذا الاشتياق إلى العراق، وتتسع بصوت مظفر، هذا الصوت العراقي، العربي، الذي ما دخل بيتاً إلا وأحبه، وما مرّ في شارع إلا وترك فيه رائحة رازقي وجوري وبنفسج العراق!

والغرفة حجارة، والغرفة صمت قبل أن ندخلها، والغرفة حياد قبل أن نتنفس فيها. وما إن جلسنا قليلاً، حتى باحت الأحجار بأشواقها، وأعلن الصمت عن نفسه مُرحّباً بنا بطريقة ملائكية، أما الحياد فقد غادر موقعه وانحاز إلينا: عندما يلتقي المبدعون، وتتقابل الضمائر، يلغي الحياد وظيفته، وينهمك في انحيازنا!

وبعد ذلك، صارت أيّة غرفة صغيرة في فندق ببيروت أو في أثينا، أو في طرابلس، أقيانوساً من الأفراح والأناشيد واليقظة النهائية، ونحن نمخر عباب البحر الأبيض المتوسط، أو نطل على غدر الأقربين، بينما يشاركنا غيفارا الجلوس في مقهى جزائري لا يرتاده الّا المتعبون في الجزائر العاصمة.

لكن ضمائرنا تبقى شاخصة نحو بغداد في غرفة صغيرة بمخيم فلسطين .

وكان الفنان "سامي كمال"، هذا المسكون بكل حزن وفرح الجنوب، يتكلم مع العود، وكان "رياض النعماني" عراقياً كما شاعر سومري، وكان مظفر منفياً خالصاً: فجأة انطلق صوته، صارت الغرفة صوتاً. صوت أم عراق؟ هواء شمالي، غناؤه شمالي، بسمته شمالية، وإذا بنا، مع صوت مظفر، ندخل في الأهوار، نسلم على أبنائها واحداً بعد واحد، نبوس أرضاً مباركة طيبة، حفظت بنيها، وأهدتهم قلائدها، وعطرتهم بفائح تلك السجادة اللامتناهية من الزهور والمحبة والكرم والأخوّة.

الأخوّة: وأرى في مظفر "صاحب الملّا خصاف" و"حسن ابن شمس الشموس"، وأسمع هدير "الريل" و"حمد"، يطلق رصاصات بندقيته فيصيب علامة القهر والتفرد.

ونقرأ شعراً للمتنبي العظيم، ونتذكر عبد الأمير الحُصيري، نبري ذاكرتنا، ونطوف في أرتيريا والجزائر والمغرب العربي، وبعض أطراف الخليج العربي، ونتوقف عند بيروت طويلاً، ونغمس عواطفنا في أحرّ أغانينا.

قلت له: مظفر، في العام الماضي قصدتك إلى ليبيا، لقد مزقت كل أوسمتي القديمة، ونفرت من نعمة معطاة، ولم أرتهن إلّا إلى قلبي ومخداته، فهو خزين عاطفة لرمل وعواطف وسهر ومائدة خمرة جماعية وغناء، حيث كان حتى الغناء ممنوعاً يا مظفر! وأنصتُ إلى صوتي في ندائي، إلى تدفق دمي في شراييني، إلى تنفسي، إلى حركة أصابعي، ثم إلى قلبي ..فأصير مع الأغنية حالة! وأقوم حالة راقصة، وجسداً في مهب الريح، مثل قصبة تهب عليها رياح أهوار العمارة والناصرية، ويصير الجسد ذرة في الغرفة، ويكف عن أن يكون جسداً، إنه الآن أغنية، أغنية الحلاج وهو يدعو أصدقاءه قبل أعدائه ليقتلوه، ففي قتله يحررونه من أضغاث هذه الحياة الفانية، ويقدمون له مفتاح أسرار الأقفال في هذا الوجود الذي لانهاية لحافته ممن نعرف وممن لانعرف.

ولكن، كيف لا نعرف ذلك ونحن نطل على أهوار الوطن؟

مَيْلَنْ..لا تتكطنْ كِحِلْ فوكْ الدَم
مَيْلَنْ ..وردة الخِزّامَة تِتكِط سم
وجرح صويحب بعطابة مايلتم
لا تِفْرَحْ ابجَتله اهلاهْ يالاكطاعي
صويحب لو يموت
المنجَل يداعي!

وتتحول الأغنية إلى مدية، والصوت سلاحاً، والشاعر إلى منفى يمشي على قدمين، يلقي التحية على المارة، يتبضع في سوق الحميدية، تغسله فتيات الشام بالورد، يستقبله أبناء "السَلميّة" و"مصياف" تماماً كما وضعه في أحداقهم أبناء "مخيم اليرموك" وعمال دمشق وكادحو "دير الزور".

منفى أم وطن؟

كلا.. إنه الشعر، إنها البلاد، وأيّة بلاد، صوته رعدها، وغناؤه تحلاتها في العشيات الحزينة، أو في الصباح الأسر الجمال. إنها البلاد، وأيّة بلاد، بلاد "صاحب الزنج" و"حمدان"، وتلك الوجوه التي ألفناها، ثم ارتحلت عنا، دون كلمة وداع، رغماً عنا!

اجتمع المنفى بالوطن، لا..ليس الوطن ذاكرة، ليس طابع بريد، ليس موالاً، إنه ترجمة شخصية المواطن العراقي الذي غسلته شمس بلاده، فنضج كما ينضج "البربن" في عزّ "آب"، وهو ابن أور الذي آخى بين قلقامش وإنكيدو، لا..إنه مردوخ يأتي بأسلحته الإلهية، وبألواح المصائر، فيمسكها الشاعر ويحولها إلى أغنية!

وهكذا نصير المغني والأغنية، نحفظها بين الجلد والعظم، ونصونها كما تحافظ عذراء على بكارتها، ونرمي شباكنا، نصطاد في مياه الأهوار أجمل ما أنشده "سيد محمد"، بينما يصطاد غيرنا جولات سياحية وعذاباً في الضمير.

ونصير الوطن ونحن في تلك اللحظة النادرة، عندما يكون الراقص هو الحياة المُثلى.

كنتُ أنا ذلك الراقص، وكنت أشعر أن مظفراً كان يحسدني على هذه النعمة غير المشتراة، فأقول له: أهلاً بك في دائرة العرفان والعشق، ثم رأيته في عيون قلبي يشاركني فرحة الراقص في حضرة المعبود.

دمشق ــ مخيم فلسطين ١٩٨٢
ــ صويحب، هو المناضل صاحب الملا خصاف، من أهالي أهوار مدينة العمارة.

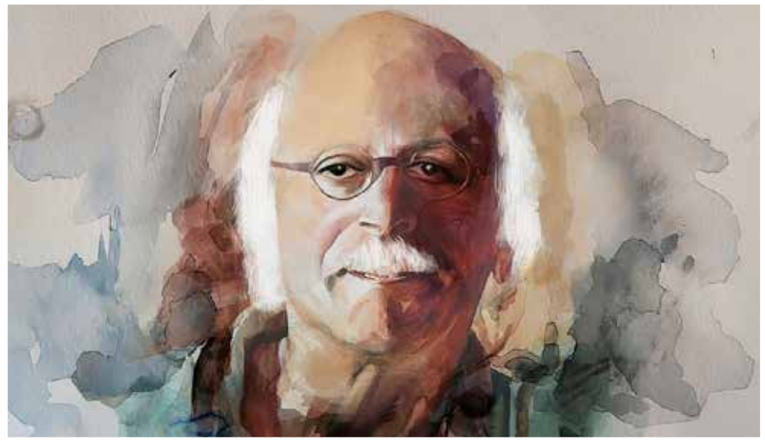

مظفر النواب..

الروح العراقية العذبة

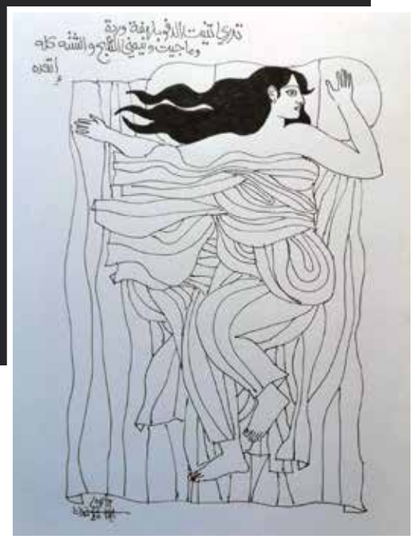

لندن - فيصل لعيبي صاحي

لم تتسنّ لي رؤية الشاعر الكبير مظفر النواب شخصياً إلا في باريس عام١٩٧٧، على ما أتذكر، في زيارة خاطفة له. لكننا سابقاً كنا نردد قصائده في سفراتنا الجامعية أيام الدراسة في بغداد، ونسمع عنه قصصاً وحكايات. كان ذلك اللقاء في بيت الصديق العزيز الفنان التشكيلي القدير نعمان هادي سلمان، حيث جمعتنا جلسة عراقية بامتياز. صاحبتها الموسيقى والغناء والسياسة والحنين إلى بلاد النهرين الآسرة.

في تلك الليلة عزف لنا الفنان التشكيلي المبدع، الصديق العزيز غسان فيضي، على العود مصاحباً تراتيل شاعرنا الكبير، الذي أسمعنا قصيدة (حسن الشموس) العجيبة، وبعضاً من نواحه المعروف على بلادنا المنكوبة. وقد تمتعنا وقتها بكرم مظفر وأريحيته وتجاوبه مع ما كنا نرغب في سماعه منه، ففنى لنا بصوته الشجي الحزين وبحّته الدامية ما طاب له الغناء، فسكرنا مع الهموم المبثوثة في كلماته ومعانيها ومأساتنا التي ترافقنا أينما حللنا.

قد يكون مظفر هو الشاعر الوحيد الذي دفع بالقصيدة العامية (الشعبية) إلى المقدمة، وجعلها تظهر في الصحف بعد قصائد الملا عبود الكرخي، فحولها إلى سلاح جاد وخطير تتوجس منه الأنظمة التي توالت على عراقنا، فأعماله الشعرية، باللهجة العراقية الجنوبية بالذات، لها سحرها الخاص وفعاليتها الأكيدة في ضمائر العراقيين من الجنسين، ولاسيما تلك القصائد الغزلية العذبة التي نادراً ما نراها عند غيره بمثل تلك الرهافة والحساسية والجمال.

لكني كثيراً ما أتساءل مع نفسي، وربما أكون على خطأ، لماذا كان (أبو عادل)، وهو الماركسي الجاد والثوري الذي لا غبار عليه، يستخدم القيم وحتى الأعراف الريفية في تناوله الموضوعات الثورية والاجتماعية؟ هل كان ذلك بسبب رغبته في إيصال ما يريد قوله إلى أوسع عدد من الناس وأكثرهم بعداً عن المعرفة الحديثة لسكان المدن؟ فالبطل لديه أقرب إلى الفلاح منه إلى ابن المدينة، أو المثقف العارف بتواطن الأمور وتعقيدات السياسة والمجتمع، وهو يعتمد على تقاليد الريف، وحتى أخلاقه، مثل الثأر والنخوة والرجولة، وغيرها من المعاني السائدة هناك. وعلى الرغم من روائعه الشعرية الثورية تلك، لكني أميل إلى قصائده الغزلية التي تعكس حرمانات الأنثى العراقية وأشواقها التي لاتنطفئ، فهو يمتلك لغة ساحرة من حيث قاموسها اللغوي: ترف ومرهف ورقيق وحساس، وكأن المتكلم امراة وليس رجلاً.

مع مظفر، أصبح للشعر العامي العراقي موقع متقدم وطليعي في خوض غمار النضال ضد الفساد والتعسف والعدوان، ضد الأنظمة الاستبدادية والرجعية العميلة، لكنه مع الحرية والسلم والديمقراطية، فقد استطاع أن يمزج تقاليد مجتمعنا السائدة مع القيم الثورية الحديثة ويجعل منها نسيجاً من الصور والمواقف التي تهز كيان المجتمع وترعب الطغاة وتقض مضاجعهم.

من تخطيطات فيصل لعيبي لقصائد النواب

بروموثيوسية مظفر النواب

الشعرية والشاعرية

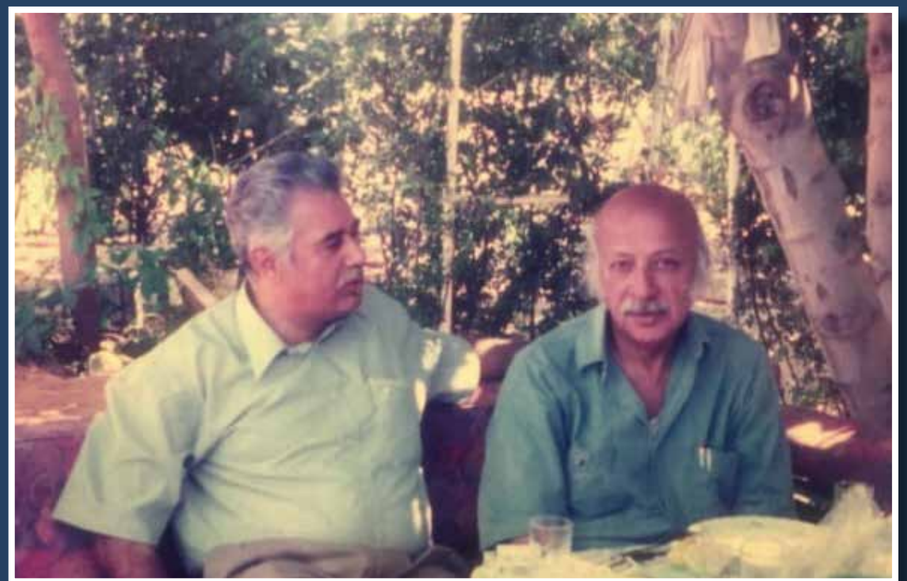

عبد الحسين شعبان مع النواب

* عبد الحسين شعبان

تقترب صورة مظفر النواب في الذاكرة الجمعيّة، العراقية والعربية، من صورة بروموثيوس في الميثولوجيا الإغريقية، الذي انحاز إلى البشر حاملاً شعلة النار الإلهية من جبل الأوليمب لتكون قبساً لهم، وهو ما أغضب زيوس، كبير آلهة السماء، والصاعقة الذي يمثّل قوة الطبيعة، منه غضباً شديداً.

لـم يكـن التمـرّد بالنسـبة لمظفـر ضربـاً مـن العبـث أو اللاجـدوى، بـل إن العبـث ألّا يتمـرّد الإنسـان، وبقـدر مـا تشـبث بروموثيـوس بالحيـاة، تشـبث النـواب بهـا أيضـاً، متحدّيـاً القـدر الغاشـم، رافضـاً المسـاومة والخنـوع، وهكـذا صنـع بتمـرده وإصـراره لحـن حياتـه البروموثيوسـية.

وحسـب ألبيـر كامـو، يصبـح الإنسـان بتمـرّده أقـوى مـن المصيـر. والمقاومـة هـي لحظـة وعـي وفقـاً لمظفـر، وهـذه هـي التـي تقـود الإنسـان إلـى التمـرّد. وهكـذا فشـرارة واحـدة تكفـي بالنسـبة لمظفـر أن تلهـب روحـه المتمـردة فتتحـول الرغبـة إلـى فعـل والحلـم إلـى إرادة، نشـداناً للكمـال والاكتمـال ورفضـاً للهـوان والامتهـان.

المتمـرّد هـو مـن يقـول "لا" وفقـاً لـ طـه حسـين، والتمـرّد مسـار فيـه قـوة "الأنـا" المحرّكـة لتحقيـق الـذات، حتـى وإن كان الخـروج مـن الجماعـة والانشـقاق عنهـا ورفـض الشـائع والمسـتقر والمعـروف، وهـو مـا عملـه مظفـر النـواب، فلـم يكـن متمـرداً فحسـب، بـل كان مثـل شـهاب انفـكّ مـن السـديم، ليكـون القـدوة والمرجـع.

هكـذا أصبـح مظفـر بوصلـةً وشـراعاً فـي اختيـار طريقـه الخـاص في الإبـداع بـدلاً مـن الاتبـاع، والحداثـة بـدلاً مـن القدامـة، والأشـكال الجديـدة بـدلاً مـن القوالـب الجامـدة،

وانتقـل مـن الشـكّ إلـى اليقـين فـي إطـار شـكوك فرعيـة صغيـرة فـي اليقينيـات الكبيـرة السـائدة، فقـد تمـرّد علـى المسـلّمات، بمختلـف مسـمّياتها وأشـكالها وهـو تمـرّد عقلـي لأجـل إنسـان لـم يولـد بعـد، وحلـم لـم يتحقـق، وأمـل قـد يبـدو الوصـول إليـه مسـتحيلاً. إنـه تمـرّد للخـروج مـن شـرنقة الخنـوع إلـى فضـاء الحريّـة، ومـن قيـد الاسـتتباع إلـى رحـاب الاسـتقلالية، ومـن عـبء التقليـد إلـى شـاطئ التجديـد، ويمكـن القـول "أنـا أتمـرّد فأنـا موجـود"، وهـو لسـان حـال مظفـر النـواب، باقتفـاء أثـر ديـكارت "أنـا أفكّـر فأنـا موجـود".

فـي هـذه الأجـواء الإبداعيـة – التمرديّـة نشـأت شـاعرية مظفـر، حيـث تلاقحـت موهبتـه مـع رسـالته الشـعرية باسـتخدام تكنيـك شـعري ولغـوي ومصطلحـي خـاص بـه، حتـى ليمكـن القـول أن ثمـة قاموسـاً مظفّريـاً بـدأ يتكـوّن، ولاسـيما فـي اللغـة المحكيـة (القصيـدة الشـعبية).

وإذا كانـت الشـعرية تتعلّـق ببحـور الشـعر وأغراضـه والشـواهد الشـعرية والانفتـاح علـى اللغـة ودلالاتهـا، فـإن الشـاعرية كمصطلـح، اسـتُخدمت فـي أواسـط القـرن العشـرين كتعبيـر عـن الإحسـاس الرفيـع بتمثيلهـا الـروح التـي تلامـس الشـعر وتعبّـر عـن جوهـره، وهـو مـا جـاء عليـه (غوسـتاف باشـلار) فـي كتابـه (شـاعرية أحـلام اليقظـة - ١٩٩١)، فكيـف يمكـن التوقّـف عنـد شـاعريّة المبدعـين، ومنهـم مظفـر النـواب؟

الشـاعرية تتميّـز بالحساسـية والجمـال والإلهـام، ومثلمـا ترتبـط بفـن الشـعر، فهـي ترتبـط بعمـوم الإبـداع. وقـد توقّـف (باختـين) عنـد شـاعرية الروائـي ديستويفسـكي. وسـبق للمعلّـم الأول أرسـطو أن تنـاول فـي كتابـه (فن الشـعر) التكويـن الفنـي ومحـاكاة الطبيعـة بصفتهـا جوهـر الشـعر، بمـا فيـه الملهـاة والملحمـة والحـوار والموسـيقى والرقـص، فثمـة فـارق بـين مـا يسـمّى شـعراً وبـين مـا يسـبغ عليـه حيّـزاً جماليـاً بحيـث تشـعر أنـه (شـعر)، وهـو مـا نشـعر بـه ونتحسسـه حـين نقـرأ شـعر مظفـر النـواب، ناهيـك حـين نسـمعه بصوتـه المؤثـر ونبرتـه المتميـزة مموسـقاً وممسـرحاً تتراقـص صـوره الفنيـة برشـاقة فائقـة، وهارمونـي عالـي الانسـجام.

تختلـف الشـاعرية مـن شـاعر إلـى آخـر باختـلاف إبداعـه، وهـذا هـو الفـرق بـين شـاعرية تنطلـق مـن الـروح وأخـرى شـكلية. وبالطبـع فـإن هنـاك معمـاراً لـكلّ قصيـدة تجـري هندسـتها وفقـاً لمعجـم الشـاعر اللغـوي واسـتعاراته وتركيباتـه، والأمـر ينسـحب علـى مكونـات الإبداعـين، الأدبـي والفنـي، وبقـدر مـا يكـون المبـدع متقنـاً لصنعتـه، تكـون اللغـة مطواعـة بـين يديـه؛ والرسـالة الإبداعيـة بقـدر جماليتهـا فإنهـا تعبّـر عـن مـدى إنسـانيتها.

وبالنسـبة لمظفـر النـواب، فـإن كتابـة الشـعر، وإن كانـت خلاصـاً فرديـاً وتعبيـراً عـن روحـه التوّاقـة إلـى الحريـة، إلا أنهـا بـدأت تأخـذ بعـداً أكثـر جماليـةً ورمزيـةً فـي الخـلاص الجماعـي، ولاسـيما الانحيـاز إلـى المظلومـين والمهمّشـين.

* أديب وكاتب

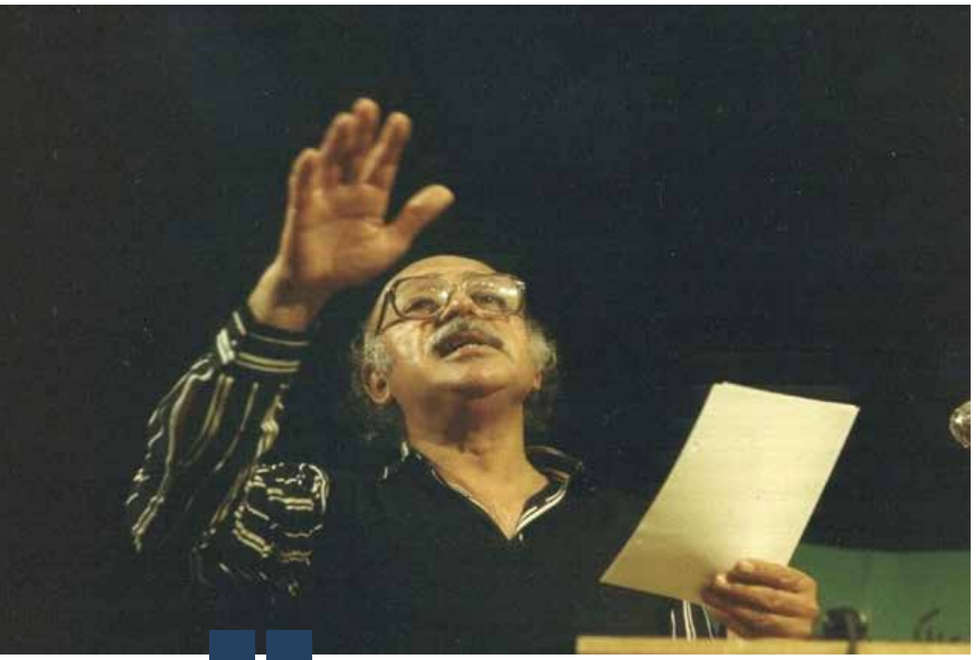

عن مظفر النواب..

التنقيب في ذاكرة الأهوار

استراليا - حسن ناصر

لنبدأ من مقارنة ربما تبدو غريبةً، لكن دونما شك لها ما يبررها. ما الذي يمكن أن يجمع بين الآثاري الكبير طه باقر والشاعر الراحل مظفر النواب؟أعتقد صادقاً أنهما يجتمعان في كشف أرثٍ ما كان له أن يرى النور لولا حسهما الرهيف ونفاذ بصيرتيهما.

أعـاد باقـر اكتشـاف الأدب العراقـي القديـم وقدّمـه لنـا بطريقـة عجـز عنهـا القادمـون مـن ثقافـات أخـرى. ذلـك لأنـه كان الأقـدر علـى استشـفاف الأواصـر الخفيـة بـين الماضـي والحاضـر، وبذلـك (أرّض) ملحمـة **گلگامـش** بإعادتهـا إلـى أرض الرافديـن مـن سـحاب العصـور المندثـرة وغمـوض بدايـات التاريـخ، مسـتعيناً بفهمـه العميـق للملحمـة ولغتهـا ووشـائجها الدفينـة تحت طبقـات الزمـن. لـم يكـن طـه باقـر يحفـر فـي الأرض بحثـاً عـن بقايـا حضـارة قديمـة، كمـا فعـل ويفعـل أركيولوجيـون مـن قبلـه ومـن بعـده، بـل كان يوغـل بمسـباره عبـر حجـب الزمـان متفحّصـاً مـا نجـا منهـا ليظلّ نابضـاً فـي الحاضـر.

حفـر الراحـل مظفـر النـواب فـي الأرض يومـاً، كان هـذا يـوم حفـر السـجناء السياسـيون نفقـاً للهـروب مـن سـجن الحلّـة. لكـن حفـره الأهـم كان فـي الأهـوار التـي شـهد مرحلـة مهمـة مـن تاريخهـا. حفـر أنفاقـه عميقاً ليستكشـف لغـة وثقافـة سـكانها اليوميـة واسـتعارتهم الطبيعـة فـي التعبيـر عـن مشـاعرهم، مجازاتهـم المدهشـة، والمعقّـدة أيضـاً، التـي تسـتثمر البيئـة بظواهرهـا وكائناتهـا. كانـت اسـتعاراته وصـوره الشـعرية غالبـاً مـا تبـدو محيّـرة وصعبـة. هـل كان يقـول (يـا ثلـج اللـي مـا وجيـت) أو (يـا تـل جـل ومـا جيـت)؟ هـل كان يريـد أن يقـول (مثـل خيـط السـمچ روحـي) أو (مثـل خيـط السـما جروحـي)؟

هـذا مـا أذكـره مـن بعـض الأسـئلة التـي تداولهـا النـاس يـوم غُنيّـت تلـك القصائـد فـي النصـف الثانـي مـن القـرن العشـرين. كان لا بـد مـن عـارف ببيئـة الأهـوار للإجابـة علـى تلـك الأسـئلة.

كيـف يمكـن لرجـلٍ مـن أهـل المدينـة عـاش فـي الأهـوار لسـنوات معـدودات أن يفهـم تلـك اللغـة الشـعرية المعقـدة وينظـم قصائـد مدهشـة فيهـا وكأنـه سـليل أجيـال مـن الشـعراء المنسـيين الـذي غنّـوا ورددوا قصائـد ضـاع صداهـا فـي ميـاه تمتـد مـع الآفـاق وبيـن آكام القصـب والبـردي؟ هـذا سـؤال محيّـر أتمنـى أن أجـد جوابـاً لـه.

النـوّاب فـارس شـاعر وشـاعر مقاتـل. يـوم شـتم الحـكام العـرب حقـق مـا أراده الجواهـري العظيـم "أغـري الوليـد بشـتمهم والحاجبـا". نعـم، هـو مـن فعـل ذلـك فترددت أصـداء صوتـه مـن المحيـط إلـى الخليـج. تلـك واحـدة مـن فضائـل النـواب التـي لابـد مـن الإشـارة إليهـا. يسـتطيع القارئ أن يشـير إلى أسـماء شـعراء امتلأت المكتبـات ورؤوس المراهقيـن بغزلياتهـم تحولـوا بعـد شـهرة شـتائم مظفـر إلـى القصيـدة السياسـية ليشـتموا الحـكام علـى طريقتـه.

طلـب منـي الشـاعر السـعودي الراحـل عبـد اللـه باهيثـم، بدايـة التسـعينيات، أن أزوده بنسـخة مـن ديـوان "للريـل و حمـد". فوجئـت بالطلـب، فقلـت لـه "ومـا الـذي يمكـن أن تفهـم مـن ديـوان أجـد أنـا الـذي ولـدت وعشـت قريبـاً مـن الأهـوار صعوبـة فـي فهمـه وحـل شـفراته؟" أجـاب الراحـل "لا عليـك سـأكون قـادراً علـى فهـم مظفـر حتمـاً". حصلـت علـى الديـوان بمشـقة وأعرتـه لصديقـي ليستنسـخه. بعـد أيـام كان باهيثـم يترنّـم أمامـي بلكنتـه السـعودية "أيـام المزبـن **گضـن تگضـن** يـا أيـام اللـف" و"ميلـن لا **تنگطـن** كحـل **فـوگ** الـدم". شـعرت برعشـة تسـري فـي أطرافـي وأنـا أسـمع فـي ذلـك صـدى أجيـال مـن شـعراء منسـيين مخـروا ميـاه الهـور بقواربهـم الصغيـرة والفضـاء بشـدوهم الرخيـم فـي عزلـة تمكـن مظفـر النـوّاب مـن كسـرها ليكـون برزخـاً يتيـح لأصواتهـم النفـاذ إلـى آفـاق لا تحـد.

الشعر الذي دلّ القصيدة على معنى الكرامة

العجيب ، أو العجائبي، هو بعض مما كون الشاعر مظفر النواب وتكون به.. فهو ليس فقط كتب شعراً بلهجة ستسهم في خلق وتطوير مدركه الشخصي الذي يلامس به البعيد، الكوني، بل إنه كتب بلهجة مختلفة ظلت تسكن مجهولاً يصعب اختراق طبقات تكويناته المتراكبة ، محولاً إياها -كالمهيمن على أسرارها وخفاياها-، إلى لغة أخرى أشد عمقاً وعلواً، برائحة ونكهة وقوى عناصر لغوية وبيئية غريبة تماماً.

رياض النعماني

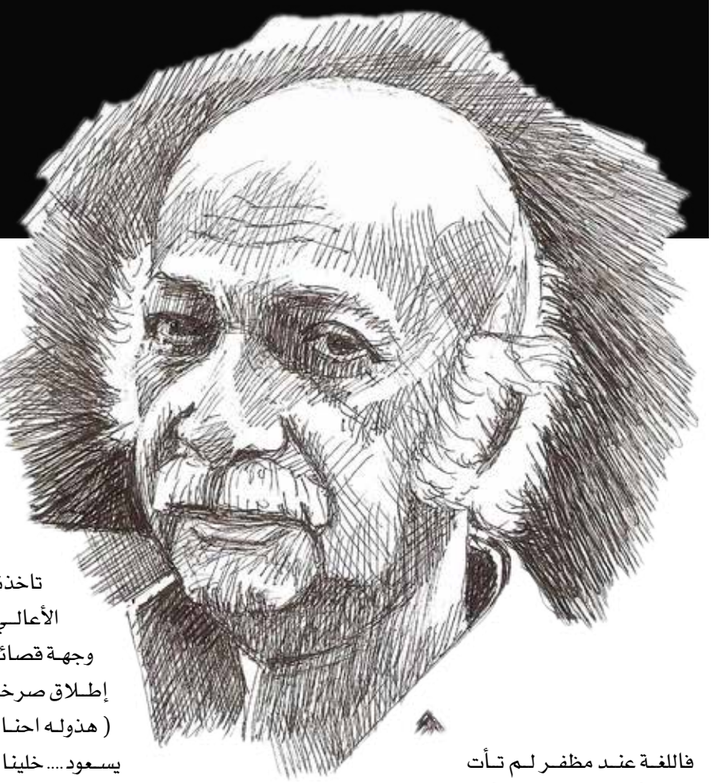

فاللغة عند مظفر لم تأت ناقلة أو حاملة لمشاعر، أو حالة معينة، بل إنها تتقدم نحو الحياة الشعرية الجديدة بحياة كاملة، فعندما يتحدث عن اللحظة الحسية يضع بين يدينا وذائقتنا كل مفاتن وحرارة وشهقات وغنج وعطور وهمس هذه اللحظة، وبلغة تخرج عن السياق المألوف، فهي تسيل متحررة كهذه اللحظة من محددات الوزن، حيث تنتشر كورد جسد الأنثى في جميع جهات النشوة الفاغمة:

(أجوتلك مخدتي وأنطر الشباج ايجيبك .. وانت عرس الليل والقداح .. يا هلبت تجي وترتاج، واجيسك عود اجيسك بالحلم تاخذني زخة لوم..)

الأعالي .. الأعالي، في كل شيء، هي وجهة قصائدة، حتى يضطر كي يصلها إلى إطلاق صرخة مدوية:

(هذوله احنا سرجنا الدم على اصهيل الشكر يسعود.... خلينا زهر النجوم من جدح الحوافر سود) .... إلى أن يقول

(وياخذنا الرسن للشمس من زود الفرح ونزود)

هذا النوع من الخطاب الشعري يدل الكتابة إلى كرامة شخصية - شعرية لا تكون إلا بهذا الموقف والتوجه، تتواصل الصرخة نحو الأقاصي:

(حمد يالمزكتوا سرجه،
حمد بالليل البعيد والمهرة الحليبية)

وهو بهذا يقدم لنا مفهوماً جديداً لخطاب شعري تتوحد فيه حرارة واندفاع أعالي ذروة اللحظة الحسية بأعالي واندفاع اللحظة الشعورية الفكرية:

(ولن صاحبنا المعكل يسوك الغيم، ذيل حصانه المحومر كصيبة شمس...)
(واميتك لذتي..وفوك التبرزل طعم)
(حسك عضاني امن اشفافي ...) .

إن استقصاء وكشف مفاهيم ودلالات لحظات مظفر الكتابية هذه، التي حولها الى زمن شعري كامل تحتاج إلى فضاء آخر لا تتيحه متابعة صحفية كهذه. اكتفي هنا بهذه الإشارات السريعة لنص مظفر العامي.. أما الفصيح فمكانه آخر أيضاً.

بعض تجليات العجائبي في منجز مظفر النواب الشعري، أنه مشروع مفتوح على سواحل مدن ومستقبل القصيدة الشعرية، فهو كالبرق انفجر في سماء شرق الكتابة الإبداعية، فوحد الجهات في نار النص الذي بدأه دون مرجعيات كتابية كافية... فالسياب الخلاق، المغيّر، بدأ قصيدته وحوله حاضنة إبداعية هائلة (الشعر العربي والأجنبي) ، فكان مشروع انعطافة في الشعر العربي.

أما مظفر، فكان في رأيي نهضة شعرية لأنه بدأ من نفسه، من أوليات نصه العامي المفتوح على صعود الوعي الثقافي والسياسي والاجتماعي لمرحلة خمسينيات القرن الماضي، مرفوعاً على موهبة فريدة تتوهج في الفن التشكيلي والغناء والمسرح والأوبرا، فمظفر كان من المفترض أن يسافر إلى روسيا لدراسة الأوبرا في موسكو، إلا أن انقلاب شباط الأسود سنة ١٩٦٣ قطع عليه ذلك.

لكن مظفراً لم ينقطع عن الغناء الذي ظل يشعل ويوسع ليل سجن نقرة السلمان الصحراوي الموحش بمصابيح صوته الذي أنهك محاولات القتلة في إخماد روح الثوار المعتقلين، واستمر في إرشادهم الى جوهر قوتهم الداخلية الإنسانية المقاومة، وكرامتهم التي انتشرت في حركة وطريق شعره الذي منحنا ذخائر إبداعية لن تموت، أذكر -على سبيل المثال لا الحصر- قصائد:

(عشاير سعود، غيلان ازيرج، صويحب، ابن ديرتنا حمد، حسن الشموس، حرز, على كد البريسم، حجام البريس).

في

حضرة المعلّم

مظفر النواب وكاظم غيلان

رياض النعماني ، مظفر النواب، كاظم غيلان ، كامل الركابي _ دمشق ٢٠٠٨

من اليمين فائز صبري، كاظم غيلان، كامل الركابي، عريان السيد خلف ، رياض النعماني، مظفر النواب
دمشق ٢٠٠٦

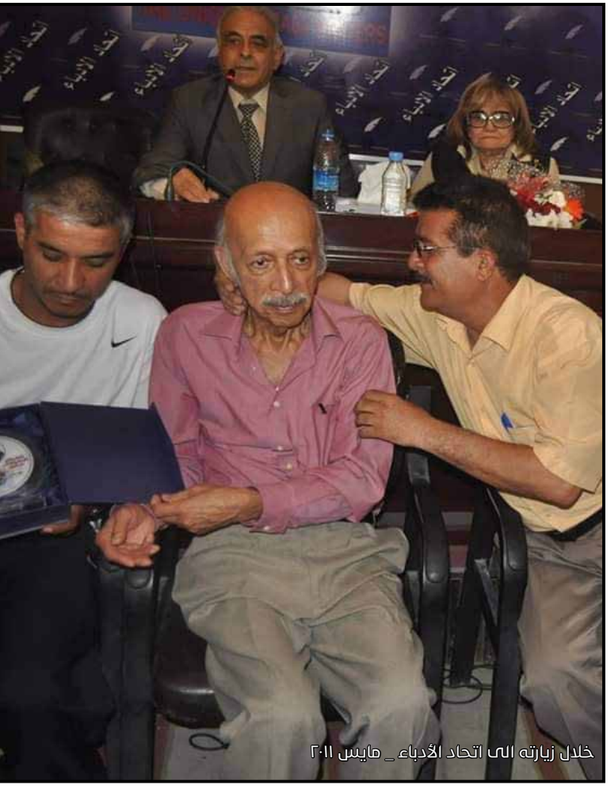
خلدل زيارته الى اتحاد الأدباء _ مايس ٢٠١١

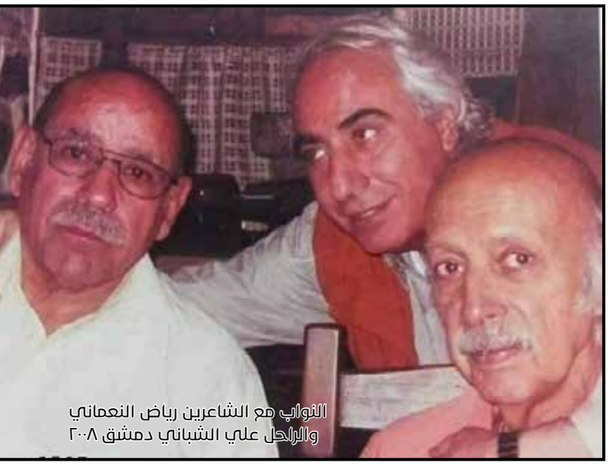
النواب مع الشاعرين رياض النعماني والراحل علي الشباني دمشق ٢٠٠٨

من اليمين :
ابو ميادة ، مظفر النواب،سامر المشعل، رياض النعماني، كاظم غيلان _ دمشق ٢٠٠٦

كاظم غيلان - مظفر النواب - مفيد الجزائري - فاضل ثامر
اتحاد الادباء مايس 2011

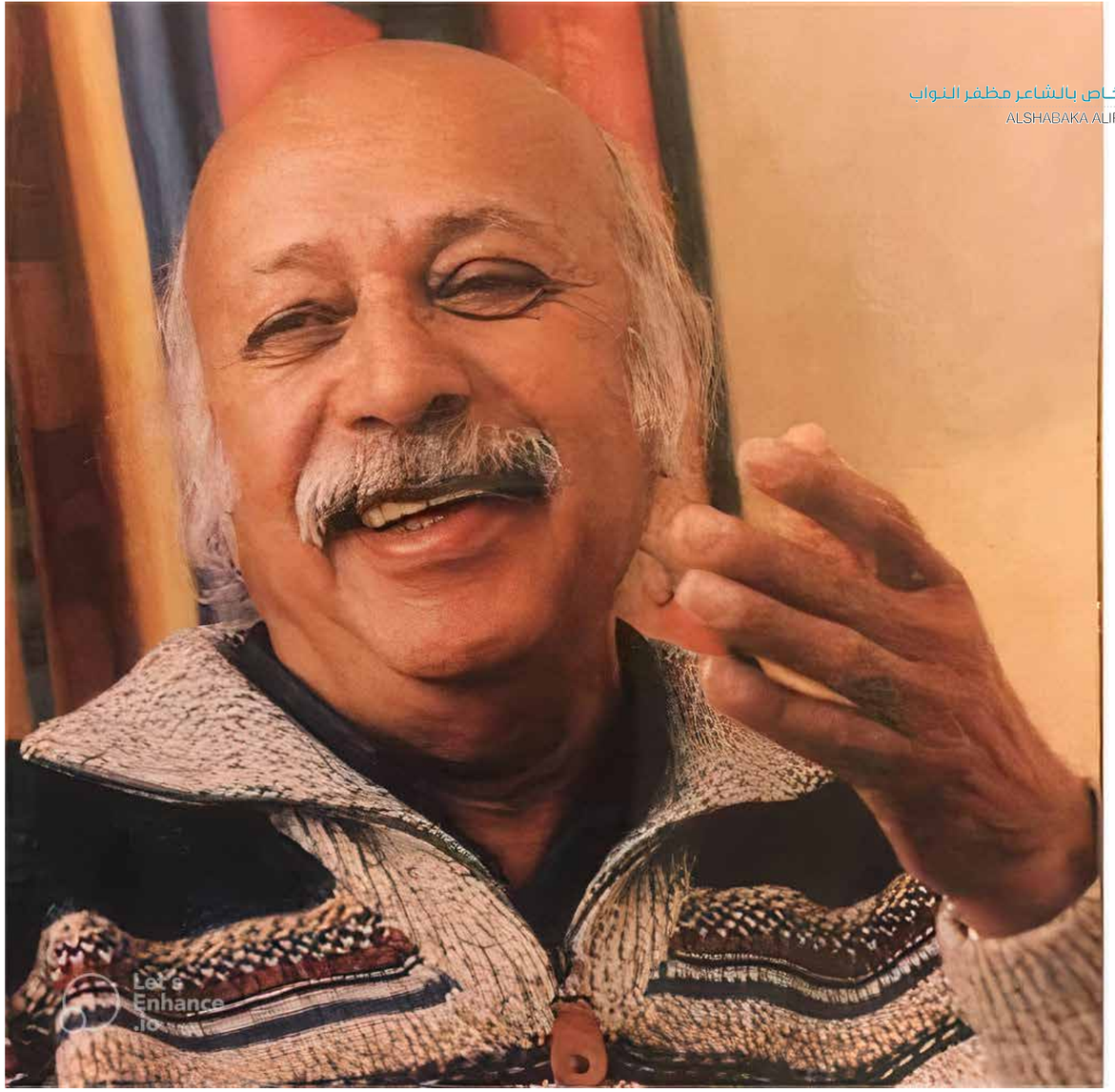

(عن الشاعر الكبير مظفر النواب أكتب)..

فـي رحـــاب المعلّـــم..

أحمد خلف

ماذا يعني أن يكون معلمك شاعراً معروفاً، وهو في بداية حيازته على الشهرة، ولا يملك زملاؤك في المدرسة إلا التعلق به، لأن حضوره القوي يفرض عليهم ذلك. كانت فيه ميزات نادرة، ولاسيما أنه في مطلع شبابه، ولعل التأمل شيمته للتفرس في وجوه التلاميذ، نظر إلينا واحداً بعد الآخر مع طيف ابتسامة أشبه بالظل، أحببناه وانسجمنا مع إرشاداته، وما يقوله لنا اعتبرناه أوامر مقدسة. بعدما تأمل الوجوه الشاحبة بسبب الفقر وسوء التغذية، قال بصوت ونبرة رخيمين: اكتبوا موضوع الإنشاء كما تشاؤون. ثم عقب على كلامه : كل واحد منكم يختار موضوعه بحرية تامة.

يتذكر الطلبة أن هذه هي المرة الأولى التي يترك فيها المعلم طلبته يختارون موضوعة الإنشاء بحريتهم. لم يجرب الطلبة الصغار تلك الحرية في الاختيار مع أي معلم من قبل إلا مع صاحب (للريل وحمد). إنه مظفر النواب، الذي أفتخر بأني كنت وفياً له، وهو الذي يستحق أن نذكره بخير دائماً، لقد تلقف العديد من المواهب في المدرسة، وشكل منها نواة للعمل، كان شاغله أن ينقذ من لديه إمكانية في الفن أو الأدب، وقد وضع اليد على أحد الطلبة، الذين فاجأ الأستاذ بأنه قد كتب قصة قصيرة، دون أن يعرف أنه قد أبدع نصاً بدلاً عن موضوعة الإنشاء.

لم تمض سوى أيام قليلة حتى أخذ الطلبة يتعرفون على أستاذهم الذي كان يكلمهم عن أسماء شعراء وأدباء وفنانين لم يسمعوا بهم من قبل، حدثهم عن البياتي والسياب ونازك الملائكة، وعن آخرين يسمعون بهم للمرة الأولى، كما تكلم عن الروايات والقصص العجيبة والغريبة التي تتحدث عن أبطال خارقين في أعمالهم، كلمهم عن طه حسين ونجيب محفوظ والتكرلي وعبد الملك نوري. كان الطلبة يمتلئون بالقصص والحكايات الجميلة والأشعار التي أثارت عجبهم، وحركت المزيد من مخيلتهم، حتى فاجأنا أحد الطلبة وهو يسأل الأستاذ قائلاً: "أستاذ أنت الشاعر الذي كتب (للريل وحمد)"، ساعتها ابتسم الأستاذ ابتسامته المعهودة وحرك رأسه للطالب أن "نعم"، ثم أشار عليه أن "اجلس". كان الأستاذ يقرأ للطلبة في كتاب قصة مغنٍّ عالمي اسمه (كروزو)، ولا يعتقد أن الطلبة قد استوعبوا كل ماقرأه لهم من قصة ذلك المغني الإيطالي، لكن كان الهدف واضحاً، إنه يريد لهم أن يتعلموا كل شيء نافع ومفيد، أما الآن فيمكن القول إنه كان يهدف إلى أن تتسع مداركهم، وألا يستمروا في حدود الدرس الذي اعتادوا عليه في المنهج المدرسي فقط. كان الهدف واضحاً في ذهن الأستاذ، هو أن يخلق جيلاً متعلماً ورفيقاً للحرية، وتحديداً حرية التعبير عن مكنون النفس.

كان يخاطبنا بنبرته النبيلة المليئة بالعناية بنا، وكذلك العطف الخلاق، يقول: "اكتبوا كل ما يخطر على بالكم وتجدونه مفيداً".

ــ كيف يمكن لنا أن نميز بين المفيد وغير المفيد؟

يقول بثقة تامة: "أنا معكم ولن أتخلى عنكم، وسوف اقرأ كل ما تجود به قريحتكم، لكي نميز بين المفيد النافع وبين مغايره".

مضى عام على وجوده الثمين بيننا، وبدأ عام جديد تلقفناه بفرح غامر أننا سنلتقي بمعلمنا الذي أخذنا في رحلة عجيبة كأنها الحلم العابر لكل الهموم، لكن ذلك العام ما إن جاء حتى جاءت معه عاصفة سوداء، لم تبق وراءها من زرع ولا ضرع، عاصفة مليئة بالغبار الأسود الذي غطى الكون من حولنا، وفوجئنا بضياع معلمنا في عاصفة الشر التي دمرت كل شيء، حتى الأحلام، ولم نكتب بعدها أي شيء يذكر، فقد ضاع منا النافع والجميل وغيرهما، كما افتقدنا البوصلة والأحلام، كل ذلك بضياع المعلم الذي أطلقنا عليه:

ــ صاحب (للريل وحمد) ..

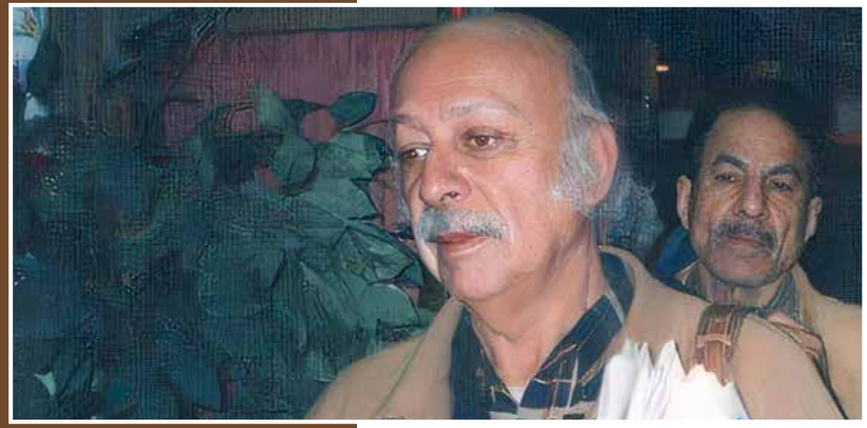

مـظفر النـواب.. خرزة الكـهرب

آمنة الموزاني

متصوفٌ كخرزة كهرب في ليلِ البنفسج، وعرفانيٌّ يحكي نبوءات الشعر التي كانت ترتدي بحّة الحزن الحار لتجعل من الأبيات في حنجرته معطفاً دافئاً يرتديه كل المقهورين في هذا العالم.

غـاب النّـواب وبقـيَ البنفسـج عليـلاً فـي ليـل العاشـقين، وهاجـرت زرازيـر البـراري نحـو الأهـوار تبحـث عـن آخـر مشـحوف حائـر يحمـل تلـك العـروس الحزينـة وهـي ترتـل "روحـي ولاتكلهـا شـبيج وانتـه المـاي مكَطوعـة مثـل خيـط السـمج روحـي"، مـع أنهـا فـي "حـن وانـه احـن" اختـارت أن تهدهـد الـروح المكلومـة وتنعشـها بأمـل، وإن كان موهومـاً، ربمـا لأنهـا تـدري بـأن "نوبـات" المحبـة تمـلُّ طبـع محبوبهـا، فجـاء الوجـع المنقـذ على هيئة قطـرات مـاءٍ فـي فـم محتضـر، لذلـك لـم نكـن عاديـن حـين أحببنـا مراثيـك الغنائيـة، وإنمـا كنـا ننمـو ونخضـرُّ ونمـوت داخـل كلّ فصولهـا.

ومـع مـا فـي صـدري مـن نخـرٍ مريـع كنـت تشـخصهُ بوجـعٍ متخثـر برائعتـك "مـدري منهـو يشـگك بگلبـي الكواغـد"، لكـن صدقـاً فـإن رحيلـك شـذّ عـن قاعـدة الحنـين أيهـا الصوفـي المتمـرد علـى كل شـيء إلا "العـراق"، وأصبـح الشـعر والغنـاء بعـدك يتيمين يا فيـض، وتوقفـت محطـة الريـل وحمـد، وجـرح صويحـب بعطابـة بعـد "مايلتـم" أيهـا السـومري المؤدلـج بالابتسـامة الدامعـة والرقـة والهـدوء وأغانـي الحنـين.

عنـي شـخصياً، أنـا مؤمنـة بأنـهُ ليـس هنالـك مـن رثـاء يليـق بحضـورك داخـل الوجـدان غيـر التظاهـر بالمـوت، أيهـا الشـاعر الماكـث فـي ديمومـة الأنفـاس وصمـت المحنّـة، فالشـعراء، كمـا يقـول الفرنسـي الكبيـر جـان كوكتـو، حينمـا أخـرج فيلمـاً قصيـراً يصـور فيـه جنازتـه أثنـاء حياتـه، قـال فيـه لأصدقائـه وهـم يرافقونـه لمثـواه الأخيـر "لا تبكـوا هكـذا، تظاهـروا فقـط بالبـكاء، فالشـعراء لا يموتـون، إنهـم يتظاهـرون بالمـوت فقـط"..

النّـواب المولـود فـي بغـداد عـام ١٩٣٤ لعائلـة أرسـتقراطية، تهتـم للغايـة بالفنـون والآداب والشـعر والموسـيقى، وكثيـراً مـا كان قصـر العائلـة المطـل علـى نهـر دجلـة مقـراً لجلسـات

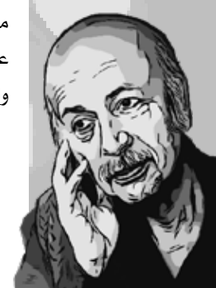

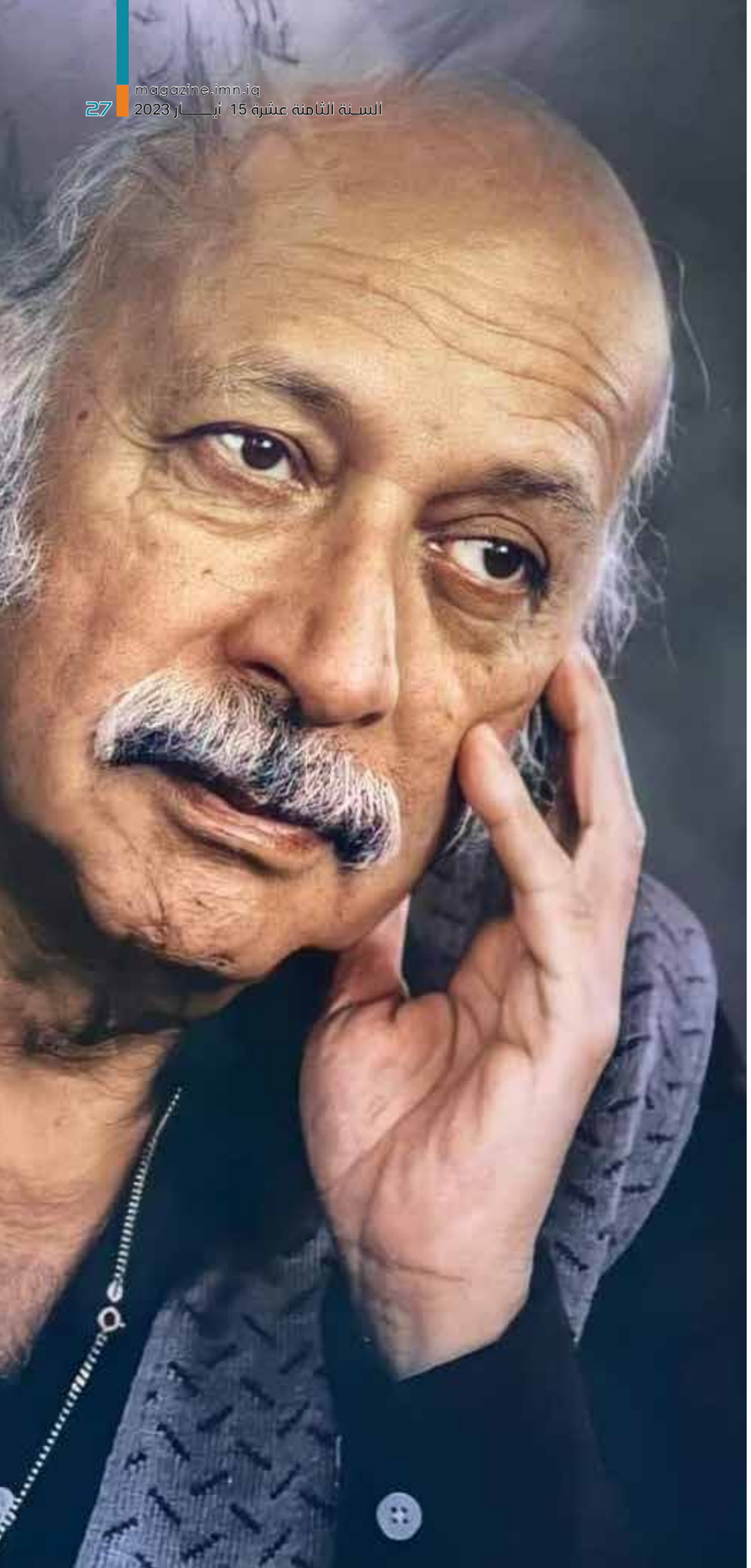

وحـوارات شـديدة الثـراء بـين الكتّـاب والشـعراء والسياسـيين، فهـو منـذ صغـره وموهبتـه الشـعرية فـي اللمعـان كان ينشـر قصائـده فـي مجـلات الحائـط المدرسـية لأن أسـلوبه يتمتـع بالجـذب الشـديد مـن خـلال إلقائـه الاسـتثنائي للشـعر، وهـو مـا خلـق لـه قاعـدة جماهيريـة خاصـة وعريضـة للغايـة فـي العالـم العربـي.

المؤلـم أن شـاعر الوجـع والثـورة والمعـارض السياسـي والناقـد والفنـان التشـكيلي، تعـرض للملاحقـة وسـجن فـي العـراق وعـاش بعدهـا فـي عواصـم عـدة منهـا بيـروت ودمشـق، ومـدن أوروبيـة أخـرى. وصـف بأنـه أحـد أشـهر شـعراء العـراق والعـرب فـي العصـر الحديـث بعـد سلسـلة طويلـة مـن القصائـد التـي تناولـت قضايـا عديـدة سياسـية وثوريـة واجتماعيـة وإنسـانية. مناضـل الشـعر الـذي أغضـب الأنظمـة العربيـة غادرنـا بعـد رحلـة طويلـة حافلـة للغايـة ومليئـة بالإبـداع والشـعر والمطـاردات والتعذيـب والهـروب، إذ توفـي النّـواب عـن عمـر ناهـز الـ ٨٨ عامـاً فـي أحـد مستشـفيات الإمـارات التـي اسـتقر فيهـا إلـى حـين وافتـه المنيـة.

فـي يـوم رحيلـه ادلهـم ليـل البنفسـج وأغلـق الدفتـر ولـم يعـد للكهـرب وصـف يليـق بـه، فقـد تعطـل الريـل وفقـد حمـد طعـم الهيـل، ولـن يسـمع (دگ الگهـوة) بعـد الآن، وقطعـاً حزنـت لأجلـه القـدس عـروس عروبتنـا، وفقـد الثوريـون والمناضلـون فـي هـذا اليـوم الصعـب شـاعرهم الـذي سـتبقى (نگـرة السـلمان) شـاهدة علـى كلماتـه وعلـى قباحـة وإجـرام البعـث.

عادل مكي

عندما فكَّك القره غولي خوارزميات النواب

كان لابد من العثورِ على مسّ التعويذةِ البابليةِ وإكسير الحياة السومري المتخثر بالأبدية النوابيَّة، فالخلود داخل خوارزميّة اللحن العظيم لا يحقق مبتغاه الفطريّ وحسّه اللاشعوري المدجن بأنغام الوجع وترانيم التشظي، إلا من خلال الرموز المشفرة والمحسوسة بين سطور الكلمات الملتهبة، فكيف إذا كانت هنا (نوابية) الشعر محطته التي طالما حلم بالوصول إليها.

فقد استطاع هذا الفتى الجنوبي، ابن مدينة الناصرية، ملهمة المبدعين، الفنان الذي يكرر التفوق بثقة على كل مقاييس الغناء واللحن العراقيين الشجيين بلون محدث وجديد، وبروح عراقية خالصة لم تكن مألوفة قبله، فهو بحق معجزة لحنية وصوتية عذبة ينتقل فيها بسلاسة الكبار الواثقين الخطى، استطاع هذا الفتى ان يفكك خوارزميات الكبير مظفر النواب ويتمشى بين سلالم الموسيقى بما يمتلكه من طاقة مخزونة خامدة، توهجها براكين الوجد المتراكم. ولا عجب.. فهو امتداد لجيلٍ متوارثٍ من خزينٍ هائل استمد معظم أحزانه المترعة من مرثيات كربلاء الحسين، ككينونة لأوجاعه الثكلى، وكواكب لأنينه الذي ما فارق مخياله.

ببعض مما ذكر، فكك طالب القره غولي خوارزميات وأحجيات قصائد مظفر النواب حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، مستكشفاً فيها مكامن الوجع الخفي، وصورها تصويراً لحنياً سلب به الألباب، وفتح بألغازها جزر الوجد الدفين الكامن في أرواحنا من قرون خلت، واستكشف لنا جواهر اللؤلؤ والمرجان المختبئة تحت طيات الاختباء القسري، التي كانت ممنوعة ومحرمة من قبل السلطة القمعية بأجهزتها الأمنية المتعاقبة. لكن الغريب في الأمر هو أن تلك الأغاني قد سجلها القره غولي في ستوديوهات الإذاعة الرسمية، دون أن يسأله أحد عنها، وهذا سر يحسب لعبقرية القره غولي، الذي مررها وسجلها لتنتشر كنار الشوق في حطب الوجد، دون أن يلاحقها مقص الرقيب او المنع، لأنها ببساطة شديدة كانت تحفاً فنية غاية في الجمال، سحرت وأسكتت أفواه وآذان المخبر السري، والمتابع الأمني الذي أصابه الانبهار وإن لم يعلن ذلك، فسكت وتغاضى، لفرط الشجن الكامن فيها.

من أشياء تشبه تسابيح السحرة، صنع القره غولي أيقونات لحنية، وأمسك بلجام الكلمات رغم صهيلها المدوي، فطوَّعها كصائغ كظماوي تعامل مع قطع نادرة من حلي ذهبية بميزان الذهب، مع نوابيات تلك القصائد المسرحة، فجاءت (حيل اسحن كليبي سحن) بداية الثورة الغنائية في الأغنية العراقية الكبرى التي أحدثت انقلاباً، أو أنها قلبت الطاولة على كل ماهو سائد من الرتابة والتكرار، مترجماً بذلك الثراء البلاغي والشاعرية الفذة في كلمات مظفر النواب، الذي خرج عن المألوف والنمطية والجمود، متحرراً من الأوزان والقافية، ومتمرداً في ذات الوقت على الحاضنة الشعرية، لأن شعر النواب قد تخطى قواعد المنظومة السائدة.

وبفراسته، أدخل القره غولي إيقاعات مميزة قريبة من روح العامة، مما كانت العرب تستعمله في كلامها القديم، شعراً ونثراً وسجعاً، كانت سبباً في جذب انتباه طالب القره غولي للنواب، رغم أنهما لم يلتقيا أبداً، لكن باجتماعهما تشعر أن هناك كيمياء أثيرية ربطت بينهما، إذ أن شعر النواب امتاز بالخروج عن الميوعة والفجاجة بكلمات عذبة، لذلك فقد فتحت ألحان طالب القره غولي لشعر مظفر النواب آفاقاً جديدة ومديات مشبعة بالوجد، فكلما دندن عود القره غولي بأغاني النواب، التي لم تكتب أساساً كقصائد أغانٍ، وإنما كتبت كقصائد نوابية خالصة، ملحنة، تشعر بأنك تبحر ضد تيار ما، لأن كلمة النواب المغناة توجع، لأنها مشبعة بأسى وألم ممتد لوجع فقد عشبة الخلود.

لذا ليس بمستغرب، وأنت تسمع جمال أنين كلمات (حيل اسحن كليبي سحن وغركني بالهم والحزن)، وتارة أخرى، (مرينه بيكم حمد واحنه بقطار الليل، واسمعنه دك اكهوه، وشمينه ريحة هيل).

لقد فتح النواب مع القره غولي كل أبواب الإبداع الموصدة، عبر غزارة المعنى وحلاوة اللحن التطريبي الذي غمر الأرواح المتعبة بشي من النشوة تجلت بالروح إلى مصاف (النيرفانا).

لقد تربع القره غولي على عرش الكمال اللحني بعد أن اشبع روحهُ من تلك القصائد التي اكتفى منها بعيون القلادة، وكأنه يقول "حققت ماكنت أصبو إليه، فقد أمسكت بلجام (عين الجنوبية)، وهو ذلك الفتى الكظماوي من عائلة النواب العريقة التي سكنت مدينة الكاظمية في بغداد، الذي تنقل ردحاً من الزمن بين أهوار الجنوب وأهلها الكرام، مطارداً ومتخفياً عن أعين أذناب السلطة الحاكمة بتهمة الانتماء المعارض والثوري ضد الأنظمة الفاشية والدكتاتورية المتلاحقة التي كانت تبحث عنه في كل مكان. عاش النواب هناك بين أعواد القصب، وكتب بلغتهم وبلكنتهم التي تشعرك برقة أمواج الهور التي تنساب (بهيدة)، ليكتب أجمل وأرق وأعذب القصائد الشعبية العراقية، التي أصبحت مناراً وقاموساً للشعر والجمال. وحتى عندما سألوا النواب مرّة عن طالب القره غولي كان جوابه فرحاً به وبتجربته الناجحة الرصينة، لأن طالباً، وبحسب المعطيات اللحنية، قد رسخ مفهوماً وأسلوباً جديدين يضاهيان سنباطيات السنباطي وموجيات الموجي وبلاغة بليغ حمدي في صياغة المقدمات الموسيقية الطويلة والتحول من مقام إلى آخر، وتعدد الإيقاعات في اللحن الواحد للأغنية العراقية، التي جدد فيها ببراعة من خلال الحنجرة الشجية للفنان ياس خضر، هذا الصوت الذي (هذّبه وشذّبه) بعد أن كان صوتاً ريفياً نائحاً باكياً فقط، وقدمه بروائع لحنية غنائية لا تنسى.

لذلك، وفي خضم تلك المعطيات والإرث الفذّ، سنحتاج بلا شك إلى مئة سنة مقبلة.. أقل أو أكثر، لكي نحظى بمثل هذا التلاقح الإبداعي الغريب والانصهار العجيب بين شعر قد يشبه شعر النواب، وبين ألحان قد تشبه ألحان القره غولي، وبين أصوات غنائية شجية كصوت ياس خضر، لنزنَ بها معادلة صنع الجمال والكمال الفني، ولا شك في أن الأزمنة حبلى بالمفاجآت برغم صعوبتها وندرتها في هذا الزمان.

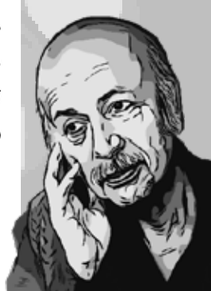

النحات العالمي أحمـــد البحرانـــي:

النَّواب.. روحٌ بجناحين

حاوره - زياد جسام

روحهُ الترفة تُشبه السماوات المُكسَّرة التي لا تصلحُ إلا للشعر، هو حمد الذي كلما مرَّ بقربه قطار من الشعر المُنغم تمدد حديد السكك برأسه نائحاً، كأنما يستدعي عجلات الكوكب بأكملها لسحق بقاياه المُصابة، علّه يستريح من مخاوفه ونصوصه الشبيهة بجراحات حيَّة، وتأنٍّ بتحدٍ غريب على سطح مُدوّنة أسطورية عملاقة اسمها النواب.

العالمـي بفرشـاته وفنـه، النحـات (أحمـد البحرانـي)، جسّـد باشـتغالاته الفنيـة النـواب، قاطـف الأنجـم المبللـة، وخصنـا بحديـث عـن تمثـال مختلـف لشـخصية المناضـل الكبيـر الـذي نحتـهُ بروحـه لا بإزميلـه وفرشـاته، حباً وانغماساً بتلـك الشـخصية الاسـتثنائية، وقبـل شـهور معـدودةٍ مـن الرحيـل، إذ تتضـح مشـاعر النحـات من خـلال الإتقـان المطلق في بنـاء العمـل كشـكل ومضمـون وبطريقـة تحاكـي الـروح قبـل أن تحاكـي ملامحـه المجسـدة..

ليل عشـگ ومحنة

البحرانـي بهدوئـه المكتنـز، سـرد لنـا ظـروف وفكـرة إنجـاز العمـل، والسـر الوجدانـي الـذي دفعـهُ بمجهـود فـردي لإنجـازهِ علـى أكمـل وجـه، قائـلاً: "لـم تكلفنـي أيـة جهـة بهـذا العمـل، علماً بأننـي أنجزتـه حين كان النـواب على قيد الحياة، وبسـاطة جاءت فكرة إنجاز عمل مجسم للشـاعر الكبيـر لسـببين: الأول هـو أننـي مثل معظـم العراقيـين والعـرب مـن عشـاق الشـعر، وبالأخـص شـعر الراحـل النـواب، إذ أن تاريـخ هـذا الشـاعر المناضـل الكبيـر ونضالـه جعـلاه يسـتحق منـا كل الاهتمـام. إضافـة إلـى ذلـك قربـي مـن أحـد أهـم أصدقـاء صبـا وشـباب الشـاعر النـواب، وهـو الفنـان عـلاء بشـير، وتلـك القصـص والحكايـات والحـوادث التـي يرويهـا لنـا الدكتـور الفنـان عـلاء عـن علاقتـه بالشـاعر النـواب، مـا أثـار فضولـي في أن أجسّـد تلـك القصـص فـي هـذا المجسـم.

قاطف النجوم المبللة

وحـول رؤيتـه الفنيـة والعمـل النحتـي المجسّـد بوضـوح لأهميـة النـواب كقامـة عراقيـة كبيـرة، يسترسـل البحراني بالقـول: "هنـاك العشـرات مـن المبدعـين تناولـوا الراحـل الكبيـر رسـماً ونحتـاً، ولـكل فنـان رؤيتـه الخاصـة بالتأكيـد، لكننـي وجـدت نفسـي أمـام إنسـان اسـتثنائي عـاش حيـاة غيـر تقليديـة مليئـة بالأحـزان والأحـداث والتشـرد، وهنـا قـررت أن يكـون عمـل مظفـر النـواب غيـر تقليـدي، وكمـا أراه وأقـرأه أنـا مـن وجهـة نظـري، فـكان هـذا المجسـم الـذي أمامكـم اليـوم.

وعـن تكويـن العمـل النحتـي الخـاص بالنـواب، الـذي تبدو فيـه ملامحـه وانحناءة رأسـه، هنـاك شـيء مـن الانكسـار، مـع أنـه يمتلـك جناحـين..قـال البحرانـي: "كل شـاعر حقيقـي لـم يتلـون تجـده هكـذا، منحـنٍ ومنكسـر بعـض الشـيء، والانكسـار وانحنـاء الـرأس ليسـا ضعفـاً، بـل إنهمـا تواضـع وصـدق، هكذا هـم غالبيـة الشـعراء المبدعـين الحقيقـين الذيـن لـم يتنازلـوا عـن مبادئهـم وإيمانهـم بمـا لديهـم مـن قضايـا إنسـانية وسياسـية ومواقـف عظيمـة، أمـا الجناحـان فوجودهمـا يوحـي وكأن النـواب يشـاهد العالـم مـن فـوق بوصفـه شـاهداً علـى العصـر الـذي عاشـه خـلال عقـود من الزمـن، التـي فيهـا مـا فيهـا مـن حـوادث وذكريـات معروفـة في تاريـخ هـذا الشـاعر والمناضـل الكبيـر".

دمعة في ليل الأمهات

وعـن دور الفنـان فـي البحـث ببواطـن الشـخصية المـراد تجسـيدها بروحيّـة الخلـود، يؤكـد البحرانـي: "حجـم هـذا العمـل ليـس كبيـراً جـداً، إذ أنـه بقيـاس ٧٠ سـم، أنجـز بمـادة الطـين، ثـم تحـول إلـى مـادة البرونـز فـي محترفـي الشـخصي ببيـروت، وسـيكون عبـارة عـن ثـلاث نسـخ فقـط، واحـدة منهـا سـتذهب إلـى صديـق ورفيـق الشـاعر الكبيـر النـواب وهـو الدكتـور عـلاء بشـير، الـذي كان لـه دور كبيـر فـي إثـارة فضولـي لتنفيـذ هـذا المجسـم، أمـا النسـختان الأخريـان فسـتكونان ضمـن مجموعتـي الشـخصية".

وختـم البحرانـي حديثـه عـن تجسـيد بعـض الشـخصيات العراقيـة المهمـة قائـلاً: "هنـا يأتـي دور الفنـان فـي البحـث خلـف أو داخـل الشـخصية التـي يريـد تجسـيدها رسـماً أو نحتـاً، وأنـا شـاهدت الكثيـر مـن مبدعينـا ممـن جسـدوا شـخصية النـواب بطريقـة احترافيـة جميلـة جـداً وواقعيـة عاليـة، لكننـي لا أسـعى إلـى نقـل صورتـه الواقعيـة، بـل أردت الدخـول فـي عمـق وتاريـخ هـذا الشـاعر الاسـتثنائي والمناضـل الكبيـر".

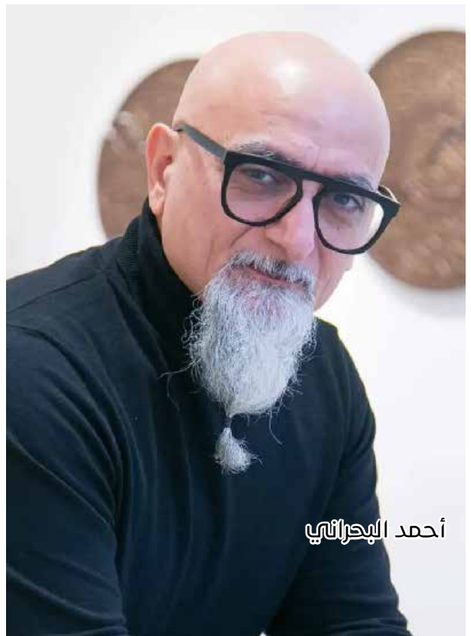

في ذاكرة الصحافتين الأوروبية والعربية

مُظفر النوّاب..
مُتمرّد على كل شيء..
إلا العراق..

آمنة عبد النبي - ألمانيا

كما يتلوى المجنون بليلهِ من الحبِ، فالليلُ -كما تعلمون- ترابٌ من قُماشة الأرواح و(طلابة جبيرة) لا تحتاج قلباً، بل أكثر من قنبلة تحت الضلوع. هكذا تسرب الحُزن المُنغّم والمخلوط ببحّةِ ليل البنفسج إلى النواب ممتداً من ينابيع الشعر الشعبي إلى طواحين أعمدة الفراهيدي، لأنهُ -بصراحة- مهمة لا يقوى عليها إلا الراسخون في الحرية.

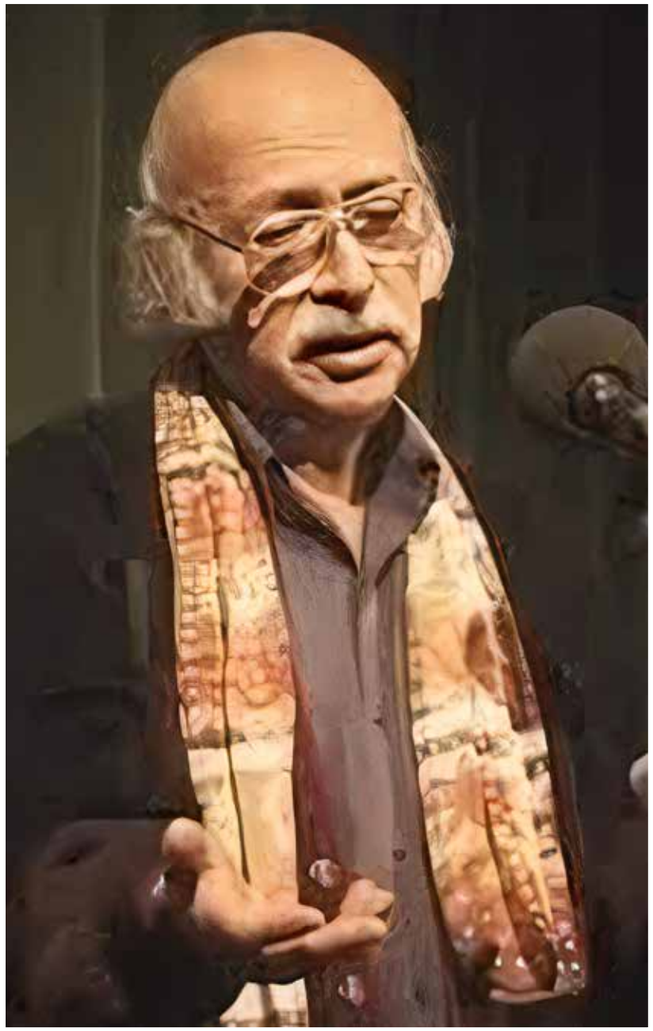

بصمات النّواب وكلماته المتخثرة بـ (الريل وحمد) و(زرازير البراري)، طُبعت على ورقٍ من حبر وعطر وتربعت على صفحات الصحافتين الأوروبية والعربية على حدٍ سواء، إذ أنه أيقظ بأحاديثه حواس العالم وتجليات الأرواح المتمردة، وقد اقتطفنا من الذاكرة بعضاً منها:

الليل قماشة الأرواح

- ثوريَّة هواجسك السياسية من جهة والمعرفية من جهة أخرى، أي منهما كان أكثر جذباً للحساسية الشعرية؟

النّواب مجيباً: "أود ان أشير إلى ما يعرف في التراث الإسلامي-العربي بـ (العرفان)، أي المعرفة القلبية، أو الإدراك القلبي، إنه نوع من الومض الذي يحصل في دواخلك ويجعلك تدرك بعض القضايا من دون أولياتها، هذا القدح الذي يجيء، ويضيء أبعاداً مستقبلية من الصعب حسابها موضوعياً."

جريدة الحياة اللندنية - ربيع 1995

حاوره: إسماعيل زاير

إصدارات مشوهة

«ليس لي في المطبوع الشعري سوى (للريل وحمد) و(حجام البريس) بالعامية، وفي الفصحى (وتريات ليلية) و(المساورة أمام الباب الثاني)، أما ما تبقى فإصدارات مشوهة ومن غير استئذاني ولا حتى الأخذ برأيي»..

جريدة الصباح - مايس/ أيار 2011

حوار: كاظم غيلان.

بغدادنا مدوَّنة أسطورية

"بغداد في مخيلتي أبداً...تقاوم الإمحاء، وكنت استعيدها في كل لحظة."

جريدة المدى- مايس / أيار 2011

حاوره: علاء المفرجي

حمالو الأوجاع والحطب

- متى بدأت تكتب الشعر، بالعاميّة أم بالفصحى؟ ومتى أحسست أنك شاعر، أو أيقنت بأنك تريد أن تكون شاعراً؟

النّواب مجيباً: "لا أذكر بالضبط. لكنّي أذكر أن جدّي لوالدي كان يجلسني في حضنه، وكان شكله يشبه طاغوراً بلحيته البيضاء، كان يقرأ لي. من أول ما حفظته منه مثلاً: «لا تسقني كأس الحياة بذلّة / بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظل/ كأس الحياة بذلّة كجهنّم/ وجهنّم بالعزّ أفضل منزل»، هذه حفظتها منه."

مجلة الدراسات العربية - خريف 1996

حاوره: سنان أنطوان

الشعر الشعبي والسلطة

«بعد مجيء السلطة الحالية في العراق شنوا حملة على العامية، وأسهم في هذه الحملة شعراء يساريون وقفوا ضدها، على اساس أنها لغة مدمرة للفصحى، وألصقوا بها كل الذنوب والعيوب، وهذه الحملة تشبه تلك التي شنت ضد الشعر الشعبي في ثورة العشرين، الشعر الذي قاوم، بينما اتهم بأنه شعر يقود إلى الفقر والتخلف، وهو أخطر عندما يقترن بالجمالية العالية، لكن السلطة نفسها عادت إلى الحث على الكتابة بالعامية عندما شنت الحرب على إيران، لأن السلطة أدركت في النهاية ضرورة تجنيد وتعبئة الناس إلى جانبها ضد إيران»..

د. حسين الهنداوي

حوار خاص من كتابه (مظفر النواب .. في أعالي الشجن).

العشق وجدليَّة الفناء

- مفردات حتميَّة مثل الموت، العشق، الجسد، الصداقة، ما الذي عنته لك؟ وهل ثمة رعبٍ مضمرٍ في سياق القصائد؟ النّواب مجيباً: "الوجه الآخر من الدكتاتورية هو الرعب من الموت، ليس ثمة دكتاتور غير مرتعب من الموت. وهو لمشاغلة نفسه تراه يضطهد البشر. ليس ثمة عشق إلا ويكون جانبه الآخر هو الموت، وعندما تتحرر من هذا الخوف ستجد أمامك الزمن كله."

جريدة الحياة اللندنية - ربيع 1995

حاوره: إسماعيل زاير

مظفر النواب- جمعة الحلفي - كاظم غيلان - تركي كاظم -اسماعيل زاير

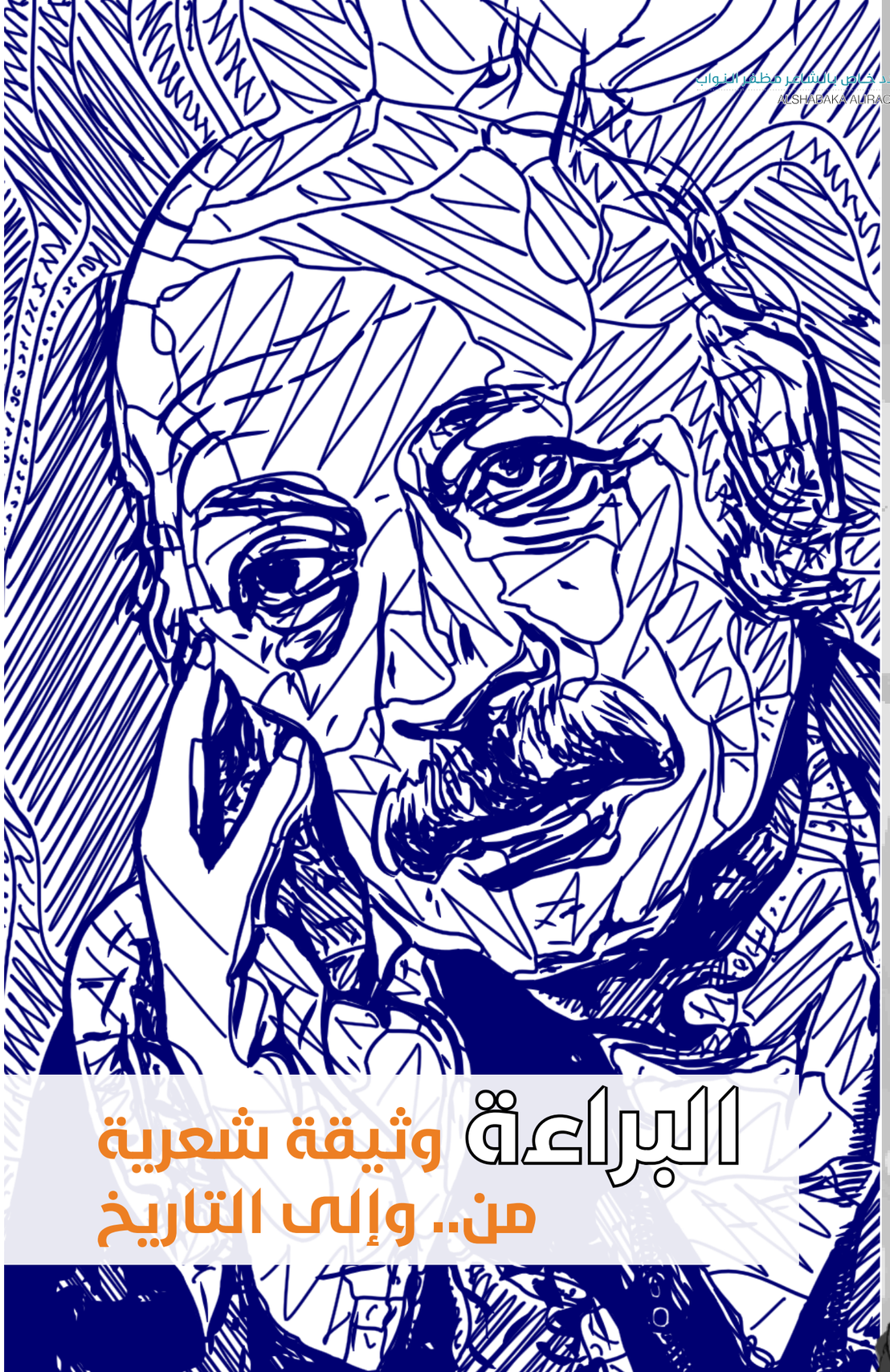

البراءة وثيقة شعرية من.. وإلى التاريخ

سلام عبود

ظاهرة (البراءة)، بالصيغة التي عالجها مظفر النوّاب في قصيدته (البراءة - 1964) لم تعد قائمة اليوم في جدول عنف السلطة، فهي من أساليب الماضي. لذلك ليس غريباً أن ينشأ سؤال منطقي في ذهن القارئ يقول: ما فائدة القصيدة الآن كموضوع للقراءة؟ وما فائدتها كنص شعري للتذوق؟ وهذا التساؤل بديهي وضروري لا يستوجب الإخفاء، بل يتطلب الإجابة.

والجواب المباشر: إنه نص لا نفع فيه الآن للتذوق الفني والاستمتاع الجمالي. فقد غادر النص منطقة الذوق منذ ولادته، وتوجه نحو التاريخ. ولدت هذه القصيدة في زنزانة. فهي مثل صاحبها نزيلة زنازين. كتبها مظفر وهو قابع في السجن، من هنا جاءت نبرة العنف العاطفي التي تفور بها القصيدة. وربما يندهش كثيرون ممن لا يعرفون مظفر جيداً كيف يمكن لكاتب (زرازير البراري) و(للريل وحمد)، أن يكون مكتظاً بالعنف إلى هذا الحد. وفي واقع الأمر كان مظفر وظل يمتلك الوجهين: أرق الهمسات، وأعلى دمدمات الغضب، كما في (عشاير سعود)، الممتلئة بالدم والنار. هذه القصيدة وثيقة سياسية تاريخية تحريضية، عظيمة الأهمية، وضعها النوّاب في أيدي أبناء الشعب، جاعلاً منها صوت ولسان كل مناهض لأسلحة السلطة وجهازها القمعي.

والنص، من جانب آخر، نقطة ضوء دراسية، ومعرفية، تؤشر لمرحلة سابقة من مراحل عنف السلطة، فلما كانت موضوعاً للبحث المعمق في ثقافتنا، وقلما جرى التوقف عند أبعادها الاجتماعية والنفسية والإنسانية. فـ (البراءة) حالها كحال غيرها من أساليب أخرى مارستها أجهزة القمع الحكومية، التي سادت في بلادنا ردحاً من الزمن، كظاهرة النفي، التي خُصت بها مدن بعينها كمنافٍ (للضالين)، من دون أن نعرف سبب هذا الاختيار الظالم للمنفيين وللمنفى، كمكان وبيئة اجتماعية تمارس دور السجان بالإنابة. والبراءة وسيلة عقابية مارستها جميع السلطات المتتالية السابقة حتى مطلع السبعينيات، حينذاك لم تعد الحاجة إليها ماسة كأداة عقابية فعالة، بل استعيض عنها بوسائل عقابية تلائم طبيعة هذه المراحل. ولم تكن (البراءة) مجرد وسيلة للتحكم بعقل وخيارات وحرية صاحبها، بل إنها في حقيقة الأمر كانت في جوهرها أداة اجتماعية ونفسية وأخلاقية للإذلال، ووسيلة فعالة اجتماعياً من وسائل صناعة مواطن مهان علناً أمام الملأ، في بيئة تولي اهتماماً كبيراً لقضايا أخلاقية، كالعار والعيب والخصوصية الفردية. ولم تكن بدعة نشر أسماء الموقعين على (البراءة) في الصحف اليومية سوى التطبيق العملي للتشهير والإذلال و(كسر العين)، وتالياً وسيلة لصناعة عضو اجتماعي مسحوق روحياً، مستصغر في أعين الجميع، سواء لدى رفاقه السابقين، أو أعضاء المجتمع المحايدين، ومن دون شك لا ننسى حسابات جهاز القمع أولاً. فقد كان التشهير الوسيلة الأسهل والأمثل لإعداد المواطن نفسياً ليكون صيداً رخيصاً بيد أجهزة السلطة، وعضواً مطيعاً، يبحث في الغالب عن مخرج ما ينقذه من حالة انكساره وضياعه ووحدته. وهذا النموذج رأيناه كثيراً، حتى بين صفوف قيادات حزبية مشهورة. وكثيرون منهم يندفعون نفسياً في اتجاهات عدوانية حادة، معنوية أو سلوكية، لتبرير حالة فقدان التوازن والشعور بالعار.

في قصيدة النوّاب التحريضية رأينا الأم والأخت، كلتيهما تستخدم هذه الصيغ الاجتماعية بطرق مختلفة، ولكن واحدة في مضمونها. فقد استخدمت الأم تعابير الخيانة والخسة والجيفة والدناءة وثلم الشرف والعفونة، و(ينهار ركني) و(كل شهيد ينعاد دفنه). وهي تعابير أخلاقية لا علاقة مباشرة لها بالسياسة. ثم راحت الأم تقابلها بما هو نقيضها: الحليب الطاهر، وعلم الثوار، لكي تضاعف من حدة التناقض بين البراءة (النظافة) وبين البراءة (تخلي الموقّع عن مبادئه). وإذا كانت الأم مؤازرة، مشجعة على التمسك بالمبادئ ورفض التوقيع على ورقة البراءة، كانت الأخت لائمة وناقدة

"يا بني ضلعك من رجيته
لضلعي جبرته وبنيته
يا بني خذني لعرض صدرك
واحسب الشيب اللي من عمرك
جنيته
يا بني طش العمى بعيني
وجيتك بعين الكلب (القلب) أدبي
على الدرب المشيته."

إلى حد التخلي عن أخوّة أخيها، الذي لم يستمع إلى صوت ضميره، وإلى رجاء أمه الضريرة، وثقة المجتمع به.

"يا بني ياكلني الجرب عظم ولحم وتموت عيني ولا الدناءة .. يا بني هاي أيام يفرزنها الكحط أيام محنة.. يا بني لا تثلم شرفنا .. يا بني يا وليدي البراءة تظل مدى الأيام عفنة .. وخلّ إيدك على شيبي واحلف بطاهر حليبي.. كطرة كطرة."

أمّا الأخت فقد اختارت الجانب الاجتماعي كوسيلة للتعبير عن بشاعة (البراءة) وأثرها النفسي والاجتماعي

على أفـراد العائلـة كافـة: (كـون الـكاع تبلعني)، (شـتايم على عرضي)، (بهاي أكابل كل أخت تنتظر منك ثار يا خوية لعرضها)، (أكابل أمهات النـاس)، (عار وذلة)، (والكرامة)، (شلون عيني تجانس عيون المحلة)، (تبرينا من اسمك)، (تهتكني بخلك وصلة جريدة)، (يا شعب هذا التشوفة موش ابنّه).

"ولك كون الكاع تبلعني
شخبر الناس
والينشد شكلّه
شلون تجابل عيون المحلة
شلون أوصفك وانت كلك عار وذلة"

وإذا كانت الأم تقابل دنس البراءة بحليبها الطاهر، فإن الأخت تقابله بموقف المجتمع ونظرته إليهم كعائلة، ولكن من المنظور نفسه: النظرة الأخلاقية الاجتماعية. وهنا ربما نصل إلى جزء من الأجوبة المتعلقة بسبب تخلي أجهزة القمع عن هذه الوسيلة الفعالة. هل حدثت تغييرات جذرية جعلت من الروابط الاجتماعية المعقدة بصبغتها الأخلاقية الصارمة أقل تأثيراً على واقع الفرد؟ هذا سؤال في عوز إلى بحث خاص لكي نصل إلى إجابة مقنعة عنه.

قارئ الأدب الروائي العراقي يعثر على أجوبة أعمق تتعلق بهذا الموضوع، وأهمها أن (البراءة) كانت وسيلة فعالة لإيذاء الشخصية والنيل من كيانها الروحي. يصل الإيذاء إلى حدود تتجاوز الموقف الأخلاقي، إلى تهديم الشخصية تهديماً تاماً وضياعها. وهذه المهمة كشفت الرواية أثرها لاحقاً، وتتبعت أساليب تدمير الشخصية بطريقة مثيرة. ولم تكن هذه وظيفة القصيدة. فقد قام السرد الروائي بكشف حقيقة خمود العامل الاجتماعي وضعف فعاليته كمنظومة توحيدية فطرية جامعة في منتصف السبعينيات. ولكن من جانب آخر صورت الرواية نهوض واستفحال العامل النفسي وانعكاساته السلوكية، وصولاً إلى حدود تدميرية قاهرة. وفي الثمانينيات نجد انعكاساً مغايراً، لكنه ينبع من المصادر نفسها، نجد ذلك في شخصية كثيرين من المثقفين خاصة بطرق مختلفة، ربما كان مثلهم الأبرز، الذي مارس جرأة استثنائية في التعبير عن خيبته واعتزاله قربته من الاستعراض، الشاعر الكبير يوسف الصائغ، الذي أظهر سلوكه الجامح وجهاً لم نألفه في الصايغ الرقيق، المسالم والعقلاني.

لكل هذه الأسباب لم يكن عبثاً قيام النوّاب بشطر قصيدته إلى شطرين، الأول تقوده الأم بلسانها الأمومي، وتضع فيه عنصرين وجوديين أساسيين في مواجهة (البراءة)، هما حليبها والبيت، صانعة معادلة رابحة في نظرها في مواجهة عار (البراءة) وذلها. وفي انعطافة أبعد تقوم الأم بربط البيت بقوة سياسية محددة هي الحزب، الذي تراه المرجع المثالي الأعلى في مواجهة السقوط والخضوع لشروط السلطة. أما الأخت فلا تقرب من السياسة، وظلت تحصر اهتمامها في العلاقات التبادلية بين أفراد المجتمع، باعتبارها المعيار الذي يقاس به (النقاء) الفردي، والأهم يقاس به مقدار التعاطي السوي مع أفراد المجتمع المحيط بالعائلة والقريبين منها.

لقد خرجت هذه القصيدة من التاريخ، باعتبارها واحدة من أقوى الصرخات التحريضية، تفوقت على أخطر البيانات السياسية التحريضية، وصارت فور كتابتها منشوراً يتداوله الناس ويحفظ نصه الكثيرون، جاعلة من الناس سلاحاً من أسلحة المقاومة، وقرّاء محرضين ينشرون موقفهم من طغيان السلطة في كل مكان. ولم تكن هذه القصيدة الثمينة لتولد من دون وجود شاعر مرهف بعظمة مظفر النواب، وثائر أبدي تملأ شرايينه صيحات التحدي الدائم لإرهاب السلطة.

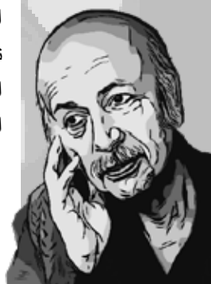

من طَشَّ قصائد مظفر في قلوب العراقيين؟

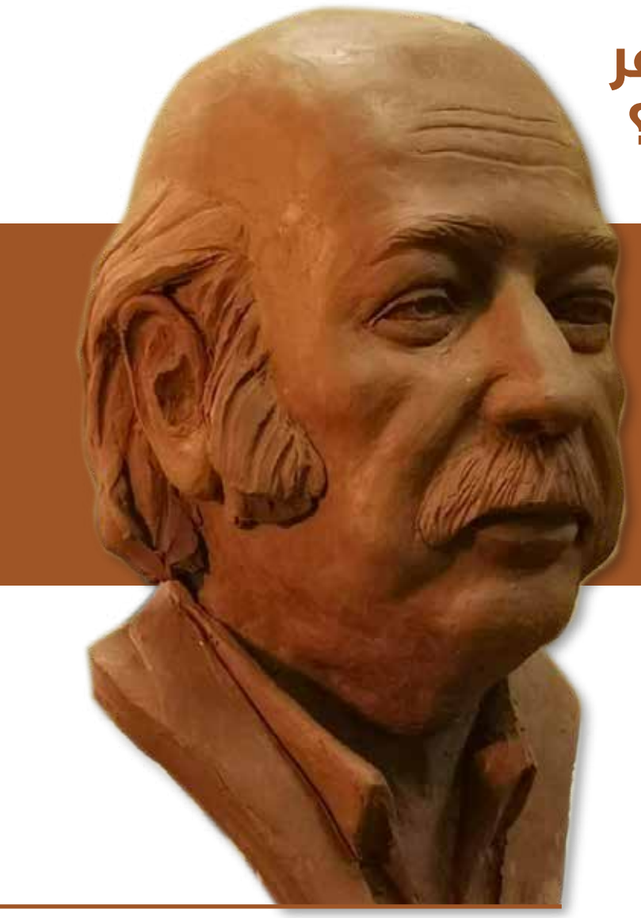

هاشم العقابي

لو حسبنا عمر مظفر النواب بالسنين سنجد أن ثلاثة أرباعها، أو ربما أكثر، كانت خارج العراق. وحتى تلك التي كانت في العراق عاش غالبيتها بين سجين أو طريد او محاصر، شاعر عاش هكذا. ومن باب المنطق وبحساب الأرقام، لا يصل شعره إلى الناس.

فلا إعلام ولا أحزاب ولا مؤسسات كانت تروج لاسمه أو لشعره. العكس كان تماماً، إذ مر زمن طويل كان الذي فيه يحتفظ بشيء من شعر مظفر يتهم بالخيانة أو حتى يجري تكفيره. كم من عسكري أعدم في زمن البعث لأنهم وجدوا تحت (يطغه) ديوان "للريل وحمد"؟ وكم من فتاة حرمت من الدراسة لأن أخاها "البطل" وجد في دفاترها قصيدة لمظفر تمطر عشقاً؟

هذه الأسئلة لم أجد لها جواباً عند كل الذين كتبوا عن مظفر النواب. والسؤال ذاته حوّل لوعتي بفقدان مظفر إلى نحيب يوم كنت أتابع تشييعه وأنا أرى شباب العراق، وجلّهم من الفقراء، يتجمهرون حول جنازته لتوديعه.

كيف عرفوا به، وكيف وصلهم، هؤلاء الذين حسبتهم، برأيي، من أصدق المشيعين إن لم يكونوا أطهرهم؟ نعم إنهم الأطهر لأنهم لم يحضروا جنازة شاعرهم كي يلتقطوا صورة يتباهون بها على صفحاتهم الإنترنيتية، بل إن طهرهم كان منبعه الحب، الحب الذي تغذت عليه أمهاتهم من قصائد النواب يوم كن عاشقات فأرضعنه لهم.

وأي حب؟

حب: "روحي ولا تكلها شبيج"

حب: "كالولي عنك بالنباعي تفيض وتعنيت ليلة ويا الكمر"

حب: "جفنك جنح فراشة غض"

إنه حب حمد وصويحب وسعود وحجام البريس.

وإن كان الحب في العراق أزلياً، لكن مظفر أضفى عليه طعماً ولوناً مختلفين. صار الحب، بفضله، أغنية جديدة تصاعدت حتى علت النجوم.

نعم، "مرينه بيكم حمد" لم تغنها الشفاه والقلوب، حسب، بل غنتها سماء العراق ونجومه وحدائقه ومدارسه وأنهاره وبساتينه.

اعصبوها برأسي يا حضرات، إن أجزمت بأن قصائد مظفر ما كانت لتُطَشّ في قلوب العراقيين لولا العراقيات العاشقات اللواتي نثرن الدارمي في دروب العراق وحقوله من قبل، ثم أرضعن نسغ الحب الذي ارتوين منه من قصائد مظفر إلى أطفالهن، من بعد.

آه يا مظفر.. فما زالت مرارة فقدانك غصّة في قلبي يا صديقي.

مظفر النواب
عصمة الشعر في انحيازه للإنسان

د.جمال العتّابي

لا يكتب مظفر النواب قصيدته حسب القوانين السائدة في كتابة الشعر الشعبي، بل هي التي تفرض منطقها الخاص في الشعر، القصيدة الجديدة لمظفر لا تبدأ بالموضوع، إنما الموضوع أحد مكتشفاتها، إحدى منصاتها للتوغل عبره نحو الموضوعات الكبرى، نحو (القضية)، وهي الكينونة التي تنبع من خصوصية النواب، من تجربته الحياتية، وشخصيته الاستثنائية.

في شعره أشياء عديدة، مثل (الأبواب والدفاتر والمحطات والشبابيك، الناس، النهر والهور)، أشياء كما هي، ومع ذلك عندما تدخلها في دينامية الحقل المغناطيسي للنص، تأخذ أبعاداً أخرى، ما يعيدنا الى فكرة السيميائية في الشعر، لا التقليدية منها، إنما الأشياء والمفردات نفسها، تتحول إلى معادن، والقصيدة إلى مختبر. قصيدة (لابد يردّون باجر)، من القصائد التي كتبها مظفر النواب في سنوات عمره الأخيرة، لم يكن النواب فيها مستعداً للتخلي عن (أناه)، أو تذويبها، لم يعد في العمر متسع كي يواجه المشكلات الصعبة في تجربته الحياتية:

گاعد بشباجك من اسنين واتته
واطلب دفاتر تركض تشيل الجنط
والحزن إلمن
ناس ما منهم گمر
ناس مايسوون خاشوگة شكر

إحساس عميق بالخيبة، وفقدان الأمل، حتى صار الألم السمة البارزة لقصائد مظفر الأخيرة، وصارت الغربة والإحباط أهم سماته، التي تكشف عن طبيعة مكوناته، كيف يكون حال الشاعر وهو يواجه حالة الانفصال، عن أولئك الذين يتناسون، أو يدعون النسيان، الشاعر أمام هذا العقوق مطالب بأن يفعل المستحيل ليخترق سكونه، في خضم الألم الذي يعيشه من أجل ان يتوازن ويكتب:

والناس الردتهم
نسوا من اسنين اسمك
والمحطة، وخلّوا ادموعك نهر

يحس أن كل ما عنده لم يكن كافياً لكي يصرخ، لكي يعبر عن هذا الذهول، بالشعر، لكن ليس بشعر المأساة، انما بشعر كأنه ينعى فيه نفسه:

أدري بيك ترید تبجي
ابجي وحدك، آنه ساكت
بس أحلفك يا گلب يجبير
لا ينخطف لونك لو شفتهم

النواب يكفيه صوت يصعد من كعب قدميه إلى رئتيه، فيقيء صراخاً ودماً، هكذا كان الصمت، يتضمن الصراخ الذي لا يكاد يسمعه عند نفسه.

لم تكن القضية خاضعة للمزاد، والدم ليس حمّالة قصائد إلى صفحات الجرائد والمجلات، ذلك خارج لعبة الشعر، كان مظفر يتوهم أنه حسم أمره مرة واحدة مع الماضي والمكابدة على الجرح، وإذا به يكتشف الحقيقة بأنه مازال ينزف، فيما يعنيه أنه ربح كل خساراته، لأنها رأسماله الرمزي، قوامه خسارات مركبة، إذ لا بيت يخاف عليه، ولا ثروة يسعى إليها، ولا حبيبة تفتك فيه، يجد نفسه في أحسن حال مقتصداً في النكد، يحتفل بمن أحب على طريقته:

اثكل شويه يگلبي
مرّة خلّيهم محطة
وانت سافر
بس أحلفك يا گلب يجبير
لا ينخطف لونك لو شفتهم

كان النواب مزيج كأسه، من صداقات، إلى إشراقات، إلى عناوين عتب، وقراءات في عذابات الإنسان، إلى الغور في عمق الذات، (الذاتي)، فالإنساني، لذا حين يهدأ موكب الندب، يعلن أنه وحده يحمل عبء الراية الحمراء، ولم يكن النواب حامل راية، إنما كان مقاتلاً في خط النار، على مراحل، وبحسب مزاجه، ثم بصراحة كان ذاك التشاكي المتشاكس، العنيد، الكاشف، الصاخب مرات، في هدوء عجيب، وحنين غير منقطع. الغريب في مظفر هذا الحياء، فما أقرب ما يحدو به الشوق لأفيائه الأولى، حينما يمتلئ قلبه حنيناً يستدر العيون، رغم جروح الإساءات، وثقل الرزايا:

لا ينخطف لونك لو شفتهم

فتنطلق نجواه على البعد إلى الوطن، عندما تختلط الغربة بالليل، يطل الوطن الأم يناجيه، فيصحو على بصمات خطواته الأولى فيه.

تجليات مظفر الأخيرة تبدو، وهو يحاور الموت الذي يدنو منه، كأنها حدوس الراحل، اذ يهاتف صحبه في الشام، وعمّان، ولندن، كدّس خبرة شعره وحياته للناس الذين أحبهم وانتمى إليهم، على حافة الوطن سار، والمسافة البعيد قطع، ببصيرة نفذت إلى آفاق وآماد، أوصلت مقلته إلى (العدسة) المكّبرة لينشد، فامتاز بتلك القدرة على الكشف، وإثارة الأسئلة، كأن الحادثات والعوادي تتكشف قبل أن تقع، أمام تلك البصيرة.

منح الشاعر العصمة لشعره في انحيازه للإنسان، واتخذ من جمهوره صحبة ضد زمان النكد، وبرغم جمهرة المعارف، وحشد المتأثرين والمتلقين، كان النواب يخاف العزلة والوحدة، وهكذا اعتاد أن يطرق باب قلبه بيمينه، وباليسار ينظر الى تاريخه، يرفع راية الفقراء والثورة، والكلمات التي لا تموت، وأسى شعبه، فمازج بين جيفارا والحلاج، ثم ابن المقفع وصويحب، ليصنع نموذجه في بطل عصره والأزمنة، لكنه بحسرة يقول:

شگد خطيه
اليفرش عيونه درب
للماله جيّه

لم يلذ بالصخرة مقيداً، بل انطلق واثقاً يشعل تحت أقدام الطغاة بارود شعره، أولئك اللائذين بالمصالح والمنافع، وبنار شعره أيضاً أضاء كهوف اللصوص والمتسلقين، وسخر من الموت المجاني، وباستحقاق الصداقة، ورفقة المجالدة، والضنى المزمن، ناقشه محبوه، فاختلفوا، واتفقوا على الاختلاف لأنه عافية حضارة العقل، والضمير الذي لا يخون. طبيعته ألا يتطابق، وإن جامل أو انحنى للريح بهدوء، حتى يعبر هو من عاصفة الاختناق والقسر، الى رحابه، حريته.

منذ البداية أرادوه على وفق المواصفات متطابقاً مع الشروط، فتمرد، لم يتردد في شد قوس الهجاء لكل من يحاول إغلاق نوافذ الأمل، يصادر حريته، ويكبّل معصميه بالقيد، أو يمد حباله لشنقه، ينفي وجوده، فكان أول العارفين بالمنزلق، ليتساءل: هل يزرع الشعر ليتناسل، أم يتيه في المغارة؟ فاختار الأول.

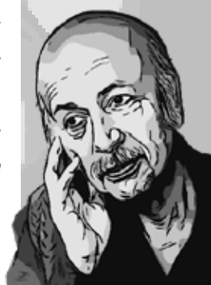

النواب مع والدته

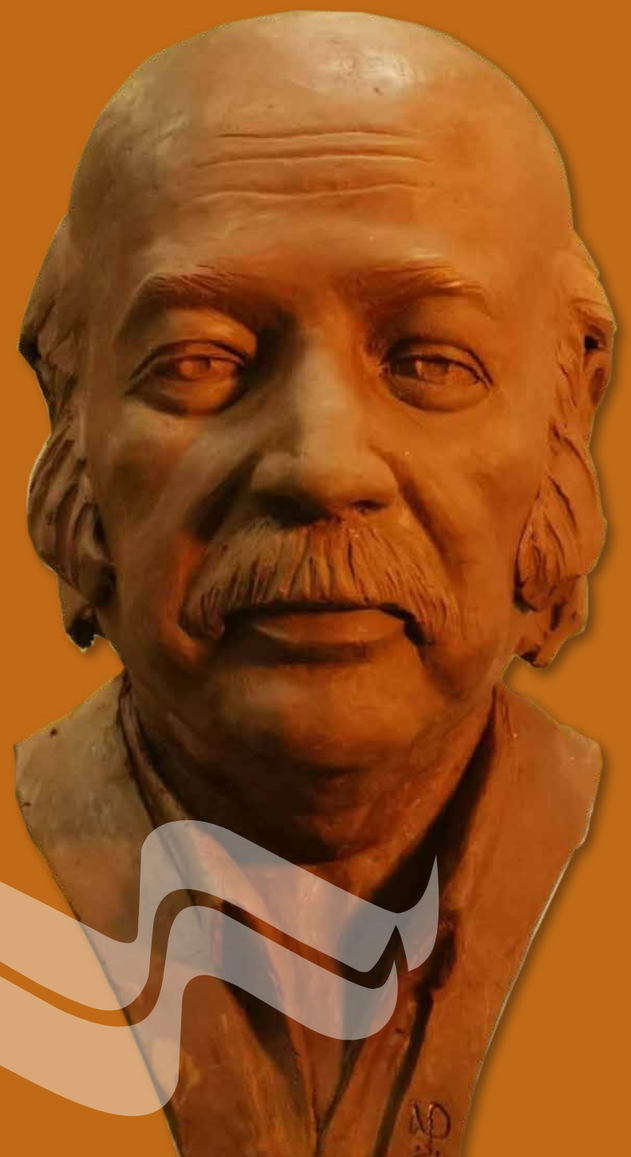

قصيدة (عين الرمد) المكتوبة بنقرة السلمان

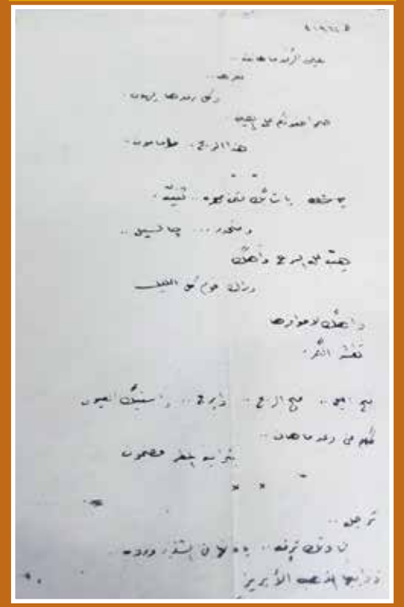

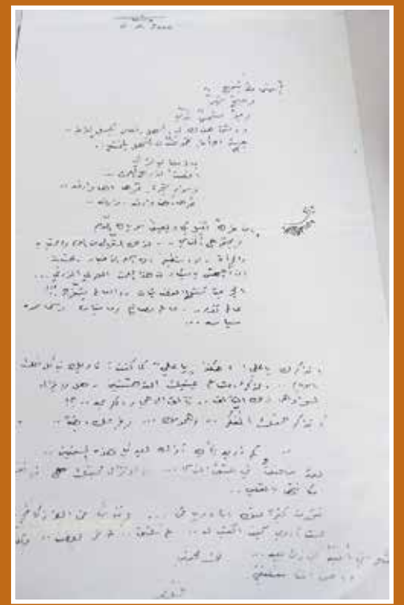
(بخط النواب) رسالة إلى الشاعر علي الشباني

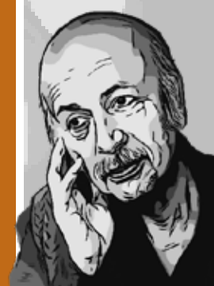

مظفر النواب ... مسرحياً

الشبكة

تعددت مواهب النواب، فهو إلى جانب كونه شاعراً، نجده فناناً تشكيلياً، إذ كان ضمن جماعة (الانطباعيين) التي أسسها الفنان الرائد حافظ الدروبي.

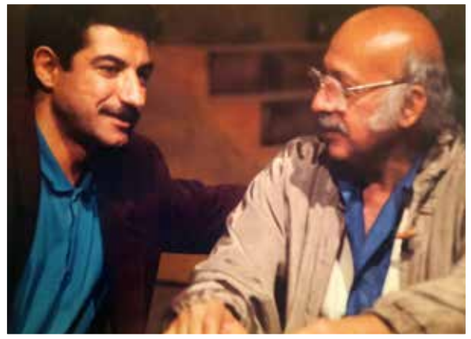

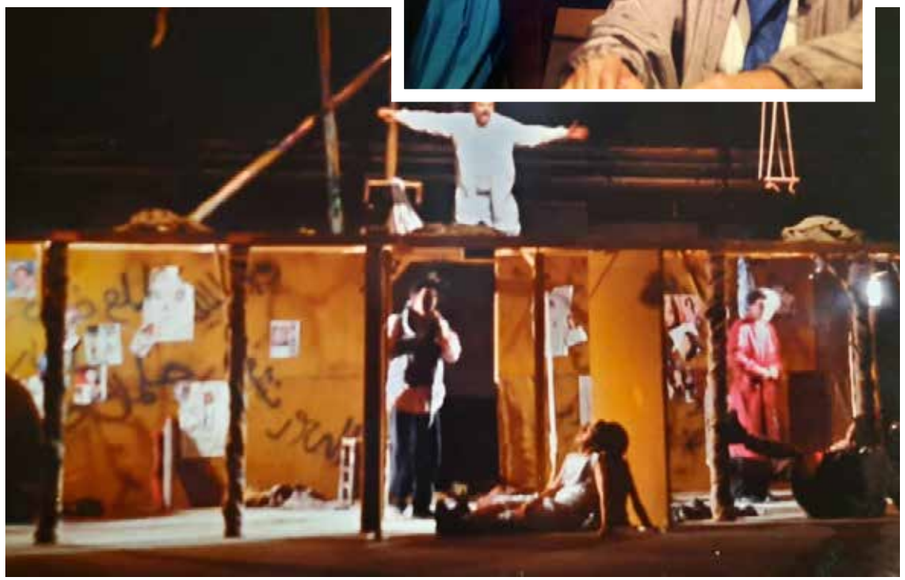

وفي المسرح كانت اهتماماته الكتابية مبكرة، إذ كتب مسرحية (الشاعر ليس استيراداً)، التي تصدر أحد مقاطعها مجموعته الشعرية البارزة (للريل وحمد) كمقدمة.

في سورية، كتب مسرحية (العربانة)، ذات الأجواء البغدادية، التي أخرجها المبدع العراقي باسم قهار، فيما شارك في أداء أدوارها أكثر من عشرين فناناً وفنانة من العراقيين والسوريين، وعرضت على مسرح الحمرا في العاصمة السورية دمشق لأكثر من شهر، وذلك في مايس / أيار ١٩٩٥، فضلاً عن عرضها في اللاذقية لأكثر من عشرة أيام، حيث حظيت باهتمام إعلامي، فقد كتب عنها الكثير في الصحافتين السورية والعربية الموجودة هناك حينها.

وذكر قهار لـ (الشبكة) أن تمرينات المسرحية امتدت لأكثر من ستة أشهر، مضيفاً أن العديد من الفنانين شاركوا في أداء أدوارها المختلفة، من بينهم الراحل جمعة الحلفي، وفاروق صبري، وشكر خلخال، وشوقية البصري وابنتها بيدر، وصلاح هادي، وحنان شقير، والراحلة رائفة الرز، وكفاح الخوص... وآخرون.

آخر سكن للنواب في دمشق

مظفر النواب في زيارته لمرقد الإمام موسى الكاظم (ع)

مظفر النواب - جمعة اللامي

آخر سكن للنواب في دمشق